القاهرة الأخرى

يوميات

رشيد يحياوي

الكتاب : القاهرة الأخرى (يوميات)

الكاتب : رشيد يحياوي

الطبعة : ٢٠١٦

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

يحياوي ، رشيد

القاهرة الأخرى – رشيد يحياوي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية

ص ، سم .

تدمك : ٣ – ١٣ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧

أ. العنوان رقم الإيداع / ٣٨٨٤ / ١٩٩٩

القاهرة الأخرى

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

محبة ..

إلى القاهرة الأخرى

هناك ..

حيث انتهيت لنفسي

المؤلف

القاهرة الأخرى

كتابة الذات بالمدينة وكتابة المدينة بالذات

١- تتقاطع في نص"القاهرة الأخرى"جملة من التجارب، بعضها مَعِش وبعضها مُتَذَكَّر وبعضها مَحْلُوم به إلا أنها تَتَبَوَّأُ فضاء المدينة وتَقْرَأُهُ عبر الذات وعبر التجربة الذي تأخذ لُبُوسًا سِيرِيًّا، بكل تلقائية المحكى وقصديته ولعبه ومناوراته.

وكما تصبح الذات مرصدا، فالقاهرة مرصد آخر. الذات ترصد نفسها عبر مرايا لا مرئية، والمدينة مرصودة عبر الذات، وربما كان أحدهما يرصد الآخر. وحتى كرونولوجية اللحظات وتتابعها كمشاهد للتجربة، لا يعفينا من الإصابة بنفس الذهول الذي يصاب به السارك وهو يخترق بجسده وقلقه وأحلامه فضاء القاهرة، وشوارعها، وحواريها، وانفتاحها على الصحراء والنيل والأهرام. يتلاحق اليومي في مشهديته وتتابع صوره ومعاناته، كما يتلاحق

اختراق القاهرة ككشف واكتشاف، كاستمتاع مازوخي بدخول ذات السارد في المدينة، كَتَرَقُّبٍ وانتظار، وذهول بالحاضر والآتي.

٢- على مستوى التجنيس، هل " القاهرة الأخرى " مذكرات أم سيرة لحياة في مرحلة من مراحل هذه الحياة ؟ يمكن الجزم بأن رشيد يحياوي قد عاش تجربة المحكي في " القاهرة الأخرى " بالفعل، كما نجزم بأنه مؤلف الكتاب. إلا أن طبيعة المحكي وهو يحيلنا على ألوان من اليوميات والمذكرات والسيرة الذاتية، تضعنا أمام فعل الكتابة، كلعب سردي، وكطرائق للبناء، وكتوجيه للسارد لمحكيه نحو مسرود له، تظل صورته هلامية ومجردة وإن كان يمنح السارد / الشخصية / الذات، قدرة غامضة على المكابدة ومواصلة تجربة المعيش، وكذا مواصلة تجربة الحكي. وهكذا تبدو " القاهرة الأخرى " نصا متحررا من جاهزية الجنس وحدوده ومقولاته، لأنه تجربة في كتابة الذات بالمدينة (القاهرة)، وكتابة المدينة (القاهرة) بالذات وعبرها. وإن كان النص، يطرح علينا السؤال التالي: هل محور الكتابة في " القاهرة الأخرى " هو تجربة السارد من خلال سفره للدراسة في القاهرة، أم هو القاهرة نفسها كمدينة للسحر والاغراء، ومسافة للإختراق والتداعي ؟ المرايا المضاعفة تقدم الجواب على السؤال. فالكتابة تَلْحَمُ العلاقة بين الذات وفضائها، وبين التجربة والمجال الذي تَتَبَوَّأُهُ الآحداث: ميدان التحرير، عين شمس، شارع رمسيس، العتبة، ميدان الأزهر، شارع سعد زغلول، ميدان الحسين، خان

الخليلي، الخ.. حيث يصبح بإمكان قراءة " القاهرة الأخرى " أن تبني خرائط لِمُروق الذات في المكان، وقراءتها لتفاصيله وإيحاءاته ودلالاته الخاصة المُكَوِّنَة من حساسيته وثقافة الرائي / الشاهد / الحاضر في صلب المكان ورحمه.

٣- هل هناك قاهرة، وقاهرة أخرى ؟ ذات حال المدن حالما يقاربها الإبداع عبر تَحَكِّيه وسرديته،تخرج من مُثُولِيَتِها العَيْنِيَّة، وأوصافها المعروفة، وتاريخيتها،وأبعادها الإجتماعية والعُمْرانِيَّة، لتدخل حيز الملكية الخاصة لنشاط التخيل والتخييل، ورؤيةُ المدينة، كمدينة أخرى، تكون مشحونة بالنجربة الدالة على الذات في صراعاتها مع نفسها ومع المحيط، وفي غربتها التي تُصَعِّدُ حساسية تلقى المدينة، وفي اكتشافها والكشف عنها. تحضر في النص " قاهرة أخرى " مرئية عبر الذات وعبر التجربة والمشاهدة، مقروءة من خلال عين مُدَرَّبَة على توصيف مكونات الفضاء وإعادة بنائها من الواقع إلى الكتابة، من المرجع إلى تفاصيل المحكي، من طوبوغرافيات المكان إلى تشكيل الكتابة بالفضاء. يؤكد منطق " القاهرة الأخرى " أن لكل قاهرته، وبمعنى آخر، فإن القاهرة تتعدد حالما تتعدد النصوص المكتوبة بها، ما دامت رؤية التجربة للكتابة وفضائها تبني العالم على نحو خاص،لا يوجد في رؤية أخرى، لتجربة كتابية أخرى. كما أن عنوان النص: " القاهرة الأخرى " باعتباره مدخلا للقراءة، يشهد على هذا الوعي الكتابي لدى رشيد يحياوي،

كما تشهد تجربته على نيل شهادة عليا بعرق الجبين، وبمكابدة حقيقية، واختراق حميمي لفضاء الثقافة والفكر في القاهرة الحقيقية، التي تحولت إلى موضوع للكتابة والتجربة.

٤- يؤكد هذا النص على مقولة أخرى أساسية، وهى أن فضاء الإبداع ليس مُسَيَّجاً، أو محصورا في الفضاء الذي ينتمي إليه الكاتب. فالكتابة السردية لا انتماء لها لفضاء أو مكان معين، بل انها تنشغل، وتشتغل، بقراءة الفضاء وإعادة بنائه سرديا، والرؤية إليه، وتشكيله عبر تفاصيل المحكي. المكان غير مقدس، ولكنه مُتَمَنِّع، لايقدم للرائي وصاحب التجربة سوى سطحه في أغلب الاحوال مُتَمَثّلاً في جغرافيته وشوارعه وحواريه وميادينه وأبوابه، وهو يحتاج إلى تجربة خاصة، لكي يصبح مكانا ذهنيا أو رمزيا أو تخييليا أو مكانا للرؤيا ولعل نص " القاهرة الأخرى " قد قارب شيئا من ذلك.

٥- في " القاهرة الأخرى " إضافة إلى ما ألمحت إليه، تأكيد على أهمية السرد، ككتابة وتخييل، فالكاتب باحث عقلاني تجاه موضوعات أبحاثه، ولكن رغبة المحكي، بطفولتها البكر، وإحالاتها على تلك الأنماط الأولى (البدائية والأزلية) من حياة الإنسان، قد باغتته، كما تباغت كل يوم، ولآلاف المرات كل الناس، حيث الحنين إلى الماضي، واكتشاف الحاضر، ومُعَانَاةُ اليوم، وصراع الذات مع نفسها ومع الواقع، والتطلع إلى المستقبل (وهى موضوعات القاهرة

الأخرى الأساسية) فيتحول السرد إلى موضوع لمجابهته لا كموضوع لِكَبْتِهِ، وتتحول العقلانية والصرامة العلمية إلى تخيل وتخييل، ويتحول العالم إلى رموز، وتتخلى الذات من ملامحها الخاصة ترميز حَلَتِهَا في فضاء الكتابة.

محمد عز الدين التازي

(١)

انتبه لتتأكد من أني أنا وليس كائنا آخر. وإذا فتحت لك حضني لتنعم بدفئه فلا تبالغ في المكاشفة. فما أنا إلا واضح في واضح. وإذا اعترتني برودة ولبستني لبوس الاقوال للالسنة فاعلم أنها مشكاك ورسولة القطب الثلجي القابع في خلفية كل مواطن.

إني بشريا حبيبي ولا أخلو من حيوانية ملولبة الغزيرة بالغة الحساسية إذا أضفت لموقدها شيئا من حطب الحب. فإذا قلتُ بأن كلامي محمول على ظهر المجاز، أجبتك أنك أنت واعتراضك مردودان من جهة واحدة كافية لتفنيد أطروحتك عني. وهذه الجهة هى كوني ملغوما من غير أن أنفجر حتى الآن. فأنا أشبه بكرة مطاط يلعب بها صبي في حقل من النبات الشوكي. إما أن تنفجر الكرة أو تنغرس في قدم الصبي الأشواك. ولحد الآن أتعجب من الأشواك التي أصابت قدم الصبي ولم تصب الكرة. إني محمول في السماء فلا تستغرب. أقسم لك على ذلك إن شئت. واعتبرني بدويا في باريس أو أكثر إذا قلت لك إني أحس في هذه الطائرة بمتعة غير متناهية. طائرة حقيقية منسوبة للخطوط الجوية الكويتية. المقاعد

حولي فارغة وأنا ملتصق بكوة النافذة حائر في الشكل الصغير الذي تبدو لي عليه الأدوية والجبال المكللة بالسحب. هذه أول مرة أحس فيها أن لا أحد أعلى مني. لقد مررنا فوق سماء الجزائر ونحن الآن نقطع سماء تونس بعدها ايطاليا، ثم تنزل الطائرة في مطار أثينا. ماذا لو قررت أن أبقى في أثينا وأصبحت أجنبيا وتخليت عن نفسي ؟

(٢)

قاعة المطار اليوناني صغيرة وليست بالشكل الذي كنت أتصور عليه مطاراً أوروبياً. لن أشرب هنا قهوة أو بيرة خوفا على نقودي. قبل قليل وأنا أنزل سلم الطائرة شألتني شقراء عجمية بانجليزية عطرة الانفاس فأجبتها بانجليزية مكسورة مهضومة: أنت وحقائبك مثلي. أنا وأنت مثل بعض. كانت تسأل عن الحقائب التي في مخزن الطائرة بعد أن رأت الركاب الذين سبقونا في النزول التحقوا بالحافلة الداخلية للمطار من غير أن يصحبوا معهم حقائبهم. ربما هى أدرى مني بأن حقائب المخزن لها مكلفون بها ينقلونها من طائرة لطائرة في كل ترانزيت. لعلها وقد رأت كائنا غريباً مثلي، اختلطت عندها الأماكن ولم تصدق أنها في مطار. وكنت أريد أن أفهمها بأني مثلها عندي حقائب ولا أعرف ما سيؤول إليه مصيرها. ترى هل فهمتني العجمية أم أوَّلَتْ ني وكيف تلقتني ؟ الله يعلم.

شاب مصري تعرفت عليه في المطار، قال إنه زار اليونان للسياحة. عرف سبب سفري فزودني بمعلومات عن الحياة في القاهرة وعن السكن بها. قال إنه تمنى مساعدتي لولا أن وجهة سفره هى الاسكندرية. طبعا أمامي وقت كاف لألتقي مغربيا أو مصريا آخر لأعرف المزيد. ذلك أني هنا في المطار منذ أزيد من ساعتين قضيتها في انتظار موعد الطائرة المصرية التي ستحملنا للقاهرة. والظاهر أننا سنصل لقاهرة المعز ليلا وليس نهارا.

الساعة تدنو من السابعة مساء. أنا وحدي مع نفسي. هنا أو هناك أجلس. " أنا طويل "[1].

ليس معي سوى محفظة ملفاتي وأوراقي الشخصية. ليس في جيبي ما أتسلى به سوى علبة سجائر مغربية. لي إذن الحرية كلها والسجائر كلها والكبريت والمرمدة أترمد فيها. لي كل ما ليس كله لأحد سواي. فاحفظني أنت يا أخي وابعث لي من جناح الرحمة ريشة كثيفة الزغب والحرارة.

(٣)

الطائرة الكويتية البوينغ ٧٢٧ بالنسبة لهذه الطائرة المصرية البوينغ ٧٣٧ مجرد استعارة بل استعارة بمعنى الكلمة. هو فرق بين طائرة مخنثة في الديباج والحرير وطائرة كادحة لا يوزعون عليك فيها

[1] عبارة تعني في العامية المغربية: لا أحمل معي شيئا.

حتى سماعات الموسيقى. غير أن كرمها ليس شحيحا. وبخاصة أني لم أتناول شيئاً منذ آخر وجبة كويتية. كرم المصرية أسمنني بعض الشئ وأغناني من جوع. كثر الله خيرها إذن. والفاتحة أرفعها لمن يكرم طلاب العلم.

لا أخفي عليك أخي العزيز أيها " الكراس "، أن نفسيتي ساقطة في حفرة من القلق الوجودي. فأنا لم أتعرف على أحد في الطائرة. حتى الشاب المصري فضل أن يجلس بعيداً عني رفقة صديق له، مع أني ساعدته في تمرير مقتنياته من الويسكي في الجمرك اليوناني. وكان رآني " طويلا " فطلب مساعدتي في حمل كيسين من البلاستيك يحتويان زجاجات الويسكي. في الحقيقة كان يرغب في أن أقوم بنفس الدور عند الدخول للمطار المصري لكني اعتذرت له خوفا من مشاكل أنا في غنى عنها.

قلت لك إني في حفرة من القلق الوجودي. لسبب واحد له علة واحدة ألخصه لك في عبارات مصدرة بليس: ليس ينتظرني أحد في المطار. ليس عندي علم بمكان محدد أقصده. ليس معي رفيق أتشاور معه. ليس عندي مال أشتري به المعرفة والخبرة والمعلومات لأضمن استمراري هناك. وها هي التاسعة ليلاً بتوقيت أثينا ونحن نطوي الليل وما تحت الليل من سماوات وأراض. وها موعد المواجهة يدنو. هل هو الذي يدنو أم أنا ؟ من الداني للقطف ؟.

الساعة الآن منتصف الليل وثلاثون دقيقة. لقد وصلنا لمطار القاهرة بحمد الله ونعمته. وبعد التحقيق والتفتيش ها أنا في قاعة انتظار غاصة بمصريين يستقبلون تباعاً من يصل من ذويهم في هذه الطائرة أو تلك.

قبل أن أصل لهذه القاعة مررت بتحقيق طويل جداً. لم أكن فيه وحدي. كنت أنا ورجل أعمال مغربي وآخر فلسطيني. قدمنا كلنا من اليونان. سألوني أسئلة كثيرة عن هويتي وألحوا على بالسؤال إن كنت من أصل فلسطيني. لكنهم بعد أن فتشوا أمتعتي وَرأْوا على الملابس مشطا ومِرْآةً وبيضا فتته ازدحام الامتعة، تيقنو يقينا عقلانيا ومنطقيا بأني غلبان ولَن أزعج ضفدعة في بركة أو عصفور في عش أو حتى كلبة ترضع جراءها.

إخواني المصريون ينسونني شيئا من وحدتي بتتبعي لأحاديثهم أو بتتبع مشهد عمالهم المهاجرين في الخليج وهم يدخلون القاعة محملين بصناديقهم الكرتونية وحقائبهم وأكياسهم الكبيرة: حيث يختبئ عفش أو شبكة أو شقة أو فدان برسيم. جل هؤلاء المهاجرين من الأرياف يدل على ذلك جلابيبهم الفضفاضة ذات الأكمام الواسعة عند المعصمين. وإذا ظهر السبب لا تسأل عن العجب بما فيه عجبي أنا، فلماذا أنا متوسد أمتعتي أو متكئ عليها من غير أن يضرب واحد على كتفي ليأخذني لأنام.

إنـي أشـعر بالارهـاق وأكـاد أفقـد الاحسـاس بعينـي اللتـين تحرقانني. مع ذلك لا أريد أن أنام خشية أن لا أجد شيئا من أمتعتي التي هى ضرورية لي رغم سطحيتها وفجاجتها وفقرها وسوقيتها.

تجاذبت أطراف الحديث مع بعض المصريين الذين لم يجدوا أي كلفة أو حرج في كسب السبق إلى مخاطبتي استجابة منهم لفضول دعاهم لذلك. بعضهم نصحني بأن لا أثق في أحد أيا كان وخاصة عند مخرج المطار. بعضهم عرض على أن يجد لي تاكسي في الحين. بعضهم عرض على النزول في فندق أحد معارفه. بعضهم اكتفى بالدردشة من غير نصيحة. أما أنا فمثل العصبة تجرها فتنقبض، وتضغط عليها، فتتمدد. حسمت في أمري وقررت أن أنتظر ولا أبداً رحلتي المجهولة إلا في الصباح.

(٤)

إني أدخن كثيراً وخاصة أن السجائر المصرية التي قدمها لي من تحدثت معهم خفيفة مع آخر ما بقى من سجائري. لا يبدأ المصري حديثه معك إلا وهو يخرج من جيبه علبة سجائره عارضا عليك واحدة منها أو أكثر حسب حلاوة الحديث ولذته من الفضول والغرابة والطرافة. لم أعد قادرا على الكتابة. ومنظري وأنا أدون هذه الخواطر يزيد فضول الحاضرين. هل أنا أحمق يا صاحبي ؟.

(٥)

لن أقص عليك كيف وصلت للقاهرة وألقيت عصاى في فندق شعبي في حارة داخلة جوار ضريح سيدنا الحسين. لكل ذلك حكاية يأتي حينها بحول الله في ما بعد.

في يومي الأول وبمجرد ما ركنت أمتعتي على فراش الغرفة بالفندق، خرجت مباشرة لأستكشف الأماكن المجاورة. بعد ذلك ركبت الحافلة نحو عين شمس. هناك بحثت وسألت واستفسرت حتى تعرفت على بعض أساتذة قسم اللغة العربية. فرحبوا بي وقدموا لي الشاي وأرشدوني لمكتب رئيس القسم الدكتور إبراهيم عبد الرحمن الذي لم يحضر ذلك اليوم. فرجعت خائبا هائما في الشوارع من رمسيس إلى العتبة. أنا في عالم والناس في عالم. أنا ممصوص محروق وهؤلاء يعاملوني بوصفي سائحاً. بعضهم ينادي: " هاللو " ويدعوني لمتجره. بعضهم يسألني هل أرغب في تحويل العملة. بعضهم إذا استفسرته أجابني بالانجليزية. وأنا لا علاقة لي بالانجليز ولا بالعجم ولا حتى بالشفرة والزرقة وبياض البشرة وارتوائها.

لم ألتق مغربيا واحدا ولا أعرف أين أجدهم. شهيتي بدأت أسترجعها بعد أن فقدتها خلال يومين لم أكل فيها شيئا تقريبا. بحثت وسألت واستنفرت. فأرشدوني لحي أم البعوث الطلابي. وفي

الحي أخبروني بكل بساطة أن هذا الحي خاص بطلبة جامعة الأزهر ولا أثر لأي مغربي فيه.

كيف أقوى على البقاء وليس في جيبي سوى جنيهات معدودة. لقد غادرت المغرب بـ ١٧٠ دولارا فقط. تعادل بالعملة المغربية حوالي ١٧٠٠ درهم. ومن هذه الدولارات اليتيمة اضطروني في المطار لأن أحول ١٥٠ دولارا بالسعر الرسمي حسن قوانينهم. وبذلك ضاع مني نصف المبلغ تقريبا. بعملية حسابية بسيطة وجدت أن ما بقى عندي أستطيع به أن أدفع إيجار شهر واحد وأن أعيش به في نفس هذا الشهر شريطة أن لا أتعدى في النفقات دولارا واحدا ما بين سجائر وتغذية وتنقل. وكيف لي كل ذلك أنا المتصعلك التائه في مدينة أوسع بكثير من كل خطواتي مجتمعة.

(٦)

اتصلت هذا اليوم بالدكتور ابراهيم عبد الرحمن فسلمني إذنا بقبولي بعد أن تأكد بأني حاصل في بلدي على ثلاث ميزات مستحسن ضمنها ميزة الاجازة وأن ميزة مستحسن تعادل ميزة جيد المصرية والتي هى الحد الادنى لقبول أي طالب في الدراسات العليا بعين شمس. الدكتور اقتنع بعد محادثتي ومعاينتي وتفحص أوراقي أني من العينة التي أكلتها القراءة وقضمتها الكتب كالجرذان. فوقع على الاذن بقبولي. لكن القسم الاداري المختص بالكلية بعد أن

تسلم وثائقي اشترط عدم قبولي بصفة نهائية إلا بعد توصله بموافقة الامن المصري عبر الادارة العامة للوافدين الموجودة بمصر الجديدة. ومتى تصل الموافقة ؟ سألتهم. أجابوا: بعد شهرين أو ثلاثة أو أكثر. قلت لهم اعطوني شهادة التسجيل أبعث بها للوزارة المغربية. قالوا لا يمكن. يجب أن نتوصل أولاً بالموافقة. أنعطيك نحن شهادة التسجيل ؟ وإذا لم يوافق عليك الأمن ؟.

هذه مشكلة حقيقية. تتبع معي عواقبها كما يلي: لن يكون بوسعي أن أرسل الشهادة لوزارة التعليم المغربية في أقرب وقت. في المغرب لن يحسموا في ملفي نهائيا. إذن المنحة ستبقى معلقة فتأمل أنت أيها النائم.

الدراسة لم تبدأ بعد وأمامي وقت كاف لأفكر في التفكير. سأفكر سواء في ساحات كلية الآداب حيث ألقى بجسدي على العشب، أو في مقاهي الشوارع وأنا أبلع " الكشري " وسندويتشات الفول وأحسو شايها الغامق، أو في غرفة الفندق وأنا أخط هذه اليوميات.

تعرفت في الفندق على طالب مصري من العريش التحق في سنته الأولى بجامعة الأزهر. اتفقنا على أن نشترك في غرفة واحدة اقتصاديا في مبلغ الايجار لكن صاحب الفندق رفض بحجة أن

القانون يمنع اشتراك مصري واجنبي في غرفة واحدة الطالب المصري لطيف وطيب جدا وقريب مني في الطبع لكني لا أتفاهم معه في نقطة واحدة هى إلحاحه علّى بأن أصلي وبأن أرافقه لمسجد الحسين. بل لقد استغرب في البداية من كوني لا أصلي مع أني مسلم. هو في واد وأنا في واد. هو يفكر في الاستقرار الروحاني وأنا أفكر في الاستقرار النفسي.

لقد تأكدت بعد جولة هذا اليوم من ميدان الأزهر إلى عين شمس حتى ميدان الجيزة مرورا بميدان التحرير وشارع سعد زغلول، أن لا حق لطلبة الدراسات العليا في الاحياء الجامعية. ومع ذلك لست يائسا من الحياة. فمنذ وصولي للقاهرة بتاريخ ٢٤-١٠-١٩٨٤ حتى هذا اليوم ٣-١١-١٩٨٤ لم أيأس من الحياة. لست يائسا منها. إني على يقين يقينا حدسيا أن الرحمة موجودة. هى والسلامة والطمأنينة والرفاهية والنشاط. كل هذه المخلوقات موجودة حتى لو اختفت. وإن اختفت فهى موجودة في الخفاء. لابد أنها موجودة.

(٧)

في بعض الاحيان أظن أني أحلم فقط. فأنا أواجه واقعا أكبر مني بكثير. يتحول هذا الواقع أحيانا إلى ما يشبه الكابوس. وأتمنى

لو كان في الحلم فقط. لكن الاصطدام بالواقع يؤكد بمرارة انه واقع وليس حلما. حتى أحلامي تابعة لهناك. وأنا أقضي الليل بالمغرب. لكن سرعان ما أفتح عيني لاجدني محاصرا من أربع جهات بشوارع واسعة ومكتظة بالسيارات والحافلات والناس، فأحتار في أي اتجاه سأذهب وأي هدف أقصد ما دامت أهدافي هنا محدودة ولم يكد يتحقق منها شئ.

أتأمل السماء فأجدها بعيدة. أتأمل الأرض فأجدها واسعة لا ترشد إلى طريق. أتأمل حولي فأجد خلقا كثيرا ينظر الي وكأني أعيش زماني وأيامي ولم يدر أن الجسد الذي يراه في مكان والفكر الذي داخله في مكان ..

أتأمل حولي وأمد يدي فلا أمسك الا الفراغ. ترى متى أخرج من هذه المرحلة الاصعب ؟.

(٨)

مرت على وجودي بالقاهرة عشرة أيام كاملة. ويا للفرق بين اليوم واليوم ! اليوم الذي يقضيه الإنسان في مكان وزمان معين. واليوم الذي يقضيه في مكان وزمان أخر. ففي اختلاف الزمان والمكان يختلف كل شئ ويصبح عمر اليوم يقدر إما بالثواني أو بالسنين. عشرة أيام كاملة. كل يوم يرميني إلى يوم. وأنا مثل الجمرة المتوقدة التي تريد أن تحافظ على حرارتها بأي وسيلة، إلا أنها تواجه

عواصف من الرمل والثلج. كأن الأيام سلسلة من الحلقات متفقة على برنامج واحد. كل لحظة أشعر بأني أكاد أبكي.

فأحبس دموعي مخافة أن أفقد كل معنوياتي فأشعر بالهزيمة وأعترف بها. كأن الظروف تتآمر وتقيم مناورات مستمرة لشنقي والتدرب على قتلي بأحدث الاسلحة وأعتقها. أدخل في أنفاق أولها مظلم ووسطها مظلم. ذلك بين إلا إذا أردت أن أجحد وأجفل واستقطب أحلاما غريبة ومستوردة ولا جذور لها في الواقع الذي هو الانفاق.

(٩)

كاد يصبح من العادي أن أقول لك كل يوم بأني مازلت لم أجد مغربيا واحدا وأني مازلت لم أجد سكنا أرخص وملائما وأن الدراسة لم تبدأ بعد وأن تسجيلي النهائي مازال ينتظر مدة طويلة وغير ذلك .. كاد يصبح من العادي أن أقول لك حديثا مشابها ومتشابها. لكن ذلك هو الواقع. ما العمل ؟.

(١٠)

ربما يكون من حسن حظي أني رغم كل هول المحنة التي مرت علّي منذ نهاية الموسم الجامعي الماضي والتي كان من الممكن أن تشل إرادتي وعزيمتي وقوتي، ورغم ما أواجهه منذ وصولي، فإن

هذا الجسد الضعيف الذي أملكه استطاع أن يكسب مناعة تلقائية ضد كثير من الحالات والآفات والاعراض والموبقات والمعيقات ومنها قلة المال والجاه وسوء التغذية ورداءتها. ومنها الوحدة والقنط والكآبة والبرد إذ أستحم بالبارد في البيت لافتقار هذه المدينة لحمامات ساخنة.

أشعر لما أتحدث إليك كأني أخفف من عذابي وأبدأ صفحة جديدة أشعر أحيانا كأنك تساعدني وتقف إلى جانبي وتنصحني. ترافقني في الشارع وفي البيت. أشعر كأنك خلق كامل الصورة.

(١١)

يوجد هنا بجامعة عين شمس لغط وهرج ومرج. كما توجد بكل الكليات هنا مطاعم تقدم باستمرار وجبات خفيفة ومشروبات غازية وشايا. لكن لا توجد مطاعم كبيرة لتقديم وجبات الغذاء والعشاء كما هى الحال في المغرب. وتتميز جامعة عين شمس بكونها تضم عدة كليات في مركب واحد. كذلك جامعة الأزهر. وإذا كانت كليات جامعة الأزهر ضيقة وصغيرة، فكليات جامعة عين شمس واسعة وساحاتها رحبة تضم حديقة وتتخللها أشجار باسقة. ويظهر لي أن الطلبة بهذه الجامعة يعيشون في جو مرح إذ يكثرون من التجمع والضحك وأخذ الصور التذكارية واللعب وتناول المشروبات الغازية وإحياء حفلات عيد الميلاد. الجامعة لا تتجلى

في ما ذكرته فحسب، بل كذلك في وجود العديد من الجمعيات الطلابية التي تقوم بأنشطة ترفيهية فنية وثقافية ورحلات.

ويهتم الطلبة بدرجة الاناقة إلى حد كبير. هذا الجو العام يشعر الشخص المعزول بأنه معزول فيتساءل: متى أخترق هذه الحواجز ؟ .

(١٢)

أخيرا وبعد أسبوعين في ذلك الفندق أو اللوكندة كما يسمونه، أتعرف على كل المغاربة في دفعة واحدة. لقد ضرب ضارب على رأسي بمطرقة: طن ! لماذا لا تبحث عن السفارة المغربية ؟ فأجبته على الفور وأنا أضرب رأسي بيدي: طن ! لماذا لم تطنطن في رأسي قبل هذا اليوم ؟ هكذا وصلت للسفارة بعد أربع ساعات من البحث. وما أن رأيت اللونين الاخضر والاحمر على مخدع الحارس بمدخل السفارة حتى خفق قلبي. فقلت هذا هو الوطن. ودخلت للوطن وكان المفاجأة. عثرت على مجموعة كاملة من الطلبة المغاربة في نقاش مع مسؤول مغربي بالسفارة.

فسمعت لأول مرة اللهجة المغربية منذ وصولي للقاهرة. والتقيت ضمن هذه المجموعة طالبا مغربيا كانت لي به سابق معرفة في المغرب. وكان أن عرفني هؤلاء بطلبة مغاربة أخرين. وها أنت

تراني منذ مساء أمس قاطنا مع طلبة مغاربة من شعبة اللغة العربية بجامعة القاهرة وليس جامعة عين شمس. ها نحن في شقة بعمارة بشارع عكاشة المتفرع من شارع الدقي القريب جدا من جامعة القاهرة. إني بعيد عن سيدنا الحسين كرم الله وجهه وعن ضريحة العائم في البخور. وبسبب هذا البعد لم ألتق هناك مغربيا واحدا. وما كنت لألتقي واحدا مهم ولو بقيت السنة كلها. اللهم إلا إذا تصادفت مههم في إحدى المقاهي.

أصدقائي الطلبة رحبوا بي وساعدني واحدا منهم على حمل أمتعتي من اللوكندة إلى هذه الشقة بعد أن أخذنا الحافلة من ميدان الدقي إلى ميدان الحسين بجوار خان الخليلي ذهابا وإيابا.

لم نتناقش في وضعيتي حتى الآن ومازلت حالا عليهم بصفتي ضيفا لكنهم شجعوني على الانتقال إلى جامعة القاهرة. إذ من الصعب أن أنتقل في كل هذه المسافة الطويلة من الدقي إلى عين شمس. فالمسافة أشبه برحلة من مدينة لمدينة. وفعلا حصل. فسحبت هذا اليوم ملفى على جناح السرعة من جامعة عين شمس وأودعته في جامعة القاهرة. ولم أجد في ذلك أي مشاكل. لان المشكل الحقيقي الوحيد هو انتظار موافقة أمن الدولة المصري. وكيفما كان الحال فشعوري الآن وقد ألقيت برأسي بين عدة رؤوس ، أحسن من السابق.

(١٣)

أصابني في اليومين الاخيرين تعب ومرض في المعدة والرأس، ربما بسبب تعب الأيام الماضية. أرجو أن يزول من تلقاء نفسه مادمت لا أملك ما لا أزور به طبيبا أو اشتري به دواء.

بدأت الدراسة بجامعة القاهرة بشكل جدي فغيرت نشاطي نسبيا ونقصت من التشرد في الشوارع. في البيت نسير على غير هدي. نسهر أحيانا إلى الصبح. نتحادث ونتناقش حول الثقافة والمجتمع لدرجة الخصام. ثم " نقلبها " ضحكا ونكتا.

نفدت نقودي وتأزمت لكن أنقذني واحد من الاصدقاء بسلفة مبلغها ١٠٠ جنيه. شكرا له. هذا المبلغ سيمكنني على الأقل من دفع الايجار وكذا من أن أؤدي أنا أيضاً ثمن ما به أشرب وأسكر مع الساكرين ممن يسكرون حين يختارون السكر.

الشقة التي نسكتها جيدة واسعة ومفروشة. بها صالة وغرفتان ومطبخ وحمام وبلكونة. موقعها في الطابق التاسع يسمح لنا برؤية النيل القريب منا. أما الحي فهادئ. وفي مدخل كل عمارة من عماراته أو فيلا من فيلاته حديقة. والأصل فيه هو الفيلات التي بدأت تتحول عمارات.

تغذيتنا لا بأس بها. مغربية الطبخ مصرية الطعم. أغلب حديثنا حول محور أساسي عندنا في مرحلتنا " التاريخية " هذه. المحور هو

المرأة: عقليتها وسلوكها. لكل منا مقاربته الخاصة. أي نحن الطلبة الجدد. بعض طلبتنا القدامى من غير الساكنين معنا يحكي لنا قصصا عن مغامراته هنا. أنا شخصيا لا أميل إلى تصديق هذه المغامرات بعد أن عاينت صعوبة الاحتيال العاطفي المثمر مع الفتاة المصرية. لكني لست يائسا من أن أجد منفذا ألج إليه وأنغمس فيه وأتنعم بحرارته.

لقد بأت أستأنس بالدقي وبميدانه. ليس فقط لانه قربني من هذه المجموعة من الاصدقاء الجدد،ولكن أيضاً لكونه أكثر هدوءا. صحيح أنه يعد من الأحياء الراقية بالقاهرة إذا قارناه بالاحياء الشعبية. لكن له استراتيجية كذلك. فمن الدقي يمكن لك أن تسير مشيا إلى ميدان التحرير في مدة لا تصل لنصف ساعة تتمتع فيها بالنيل على مرحلتين أو جسرين. وبإمكانك من الدقي أن تأخذ عدة مواصلات نحو الزمالك أو نحو الاهرام. أما جامعة القاهرة وحديقة الحيوان وحديقة الأورمان فلا تبعد إلا بدقائق معدودة.

وفي الدقي مخبزة ومطاعم وثلاث محلات لبيع الخمر ومقاهي وجمعية استهلاكية للمواد الغذائية وسوبر ماركت " سعودي " لمن لا يريد أن يصطف في طابور الجمعية الاستهلاكية " الاهرام " .

(١٤)

تأخر الحديث معك.ورغم أنه لم يحدث شئ جديد إلا أنه كان من الممكن كما اعتدت في السابق أن استغل الفرصة لاسترجاع

الماضي أو استشراف المستقبل. ولكن الحقيقة أن هذه الرغبة ليست موجودة عندي. ولذلك آثرت أن أظل صامتا بدل أن أجاملك بمشاريع لن تتحقق. أنت تعلم قصتي منذ الصيف. وكيف لم تمر العطلة عندي، بل عانيت فيها كثيراً من المرارة بسبب عدم وضوح خيط أمامي فقد كنت حينئذ أمام اختيارات وضرورات تتعلق بالمستقبل داخل المغرب أو خارجه. وحسم الأمر كما تعرف بتوجهي إلى مصر. ووصلت إليها وحدي وبمبلغ زهيد.ومع ذلك وبكامل الحذر عشت أسبوعين وحيدا في حي مصري شعبي. بل من أكثر أحياء القاهرة شعبية. وعشت في هذه الفترة مع المجتمع المصري حياته اليومية: أكله وأخلاقه ..

(١٥)

أخذت الحافلة إلى آخر محطة.وتابعت راجلا طريقاً طويلاً جدار سار بي إلى خارج القاهرة كثيرا، فوجدت نفسي وسط الصحراء. صحراء حقيقية فعلا. إنها المنطقة غرب الاهرام. هناك طريق يمر على عدة ثكنات عسكرية ولا أعرف أين يوصل. ولكني تركته وصعدت الحافة يميناً.

وجلست أتأمل الاهرام من بعيد وأتأمل القاهرة من بعيد وأتأمل الصحراء من قريب وأتامل نفسي. وتذكرت العائلة والبلد، وأحسست أني في قمة السعادة. قضيت وقتا هناك ثم نزلت وقطعت الطريق

صاعدا الحافلة إلى الشرق. سرت وسط الصحراء في اتجاه الاهرام. حولي الرمال ذات الزمن القديم وأثار ثكنة عسكرية قديمة.

شعرت كأني طفل من الفرح. وانتبهت إلى الارض. فإذا بقايا كائنات مائية قديمة هى عبارة عن متحجرات. فتذكرت أحد اصدقائي المهتم بهذه الاشياء. وأنا نفسي اهتم بها. فجمعت منها عددا.

وأخيراً وصلت لمنطقة الأهرام. فإذا بجمهور كبير، مصريون هناك وسياح أجانب، وإذا بناس لهم جمال وحمير وخيول معدة للسياح. فذكرني ذلك بالمغرب. ومع أني لم أقرر الذهاب للأهرام هذا اليوم إلا أني وجدت نفسي أسير إليها. فتمتعت بمشاهدة عظمتها وهولها. أما أبو الهول فمازال يتأمل ويتأمل .. كنت وحدي هائما بين الاهرامات وبين الناس المتفرجين على الاثار، ولكني تمتعت. الاهرام قصيدة شعر لا تكفي معها قراءة واحدة. ولهذا سأعود مرة أخرى للاهرام. وأخرى وأخرى ... وفي القاهرة أماكن وأماكن كلها تفتح في المشاعر انهارا رقراقة وتفتق في الذاكرة عيونا للعطر والحب.

(١٦)

بعد غد يَحُلُّ العام الجديد. العام الجديد يحمل اسما جديدا ١٩٨٥ فأقول سنة سعيدة لك. وأقول سنة سعيدة لي. أقول سنة

سعيدة لنا. أنت وأنا. لا يقول أحد. هل تقولها السنة. هل تقول أنا سعيدة بكما كأن لها شفاه ؟ بل لها وهى تقول الكثير، ولكن شفاهها أنا، وشفاهها أنت. وكلماتها نحن. فأقرأ معي السنة واسمعها. كيف تتبدى كلماتها في وجوهنا. سنة جديدة وأنا هنا. اعتادت السنوات أن تتكلمني وأنا في المغرب، وكنت كل مرة تتكلمني فيها تجدني في وضع رتيب لا تغير فيه إلا من حيث ان الكلمات تتعاقب. سنة٦٨ تلميذ بالقسم الأول، العائلة فرحانة. فأنا أول من يلتحق بالتعليم وأنا الكبير.

سنة ٧٤ التلميذ يمشي، انه في الاعدادي. الطفل التلميذ لا يتوقف. والسنة والسنة الاخرى واللاحقة. الطفل تبسم. العائلة تحفظ الطفل والزمان. تحاول العائلة التشبث بالزمان والخيط الواهن يربط بينهما. تحاول العائلة التشبث بالزمان. سنة ٨٠ الطفل التلميذ في الجامعة. السنة تنطق والشاب يجهر. يحاول الطفل الصعود إلى قمة السنة الشاهقة فيتدحرج. وتحاول السنة الصعود إلى قمة الشاب فتصعد ولا تتدحرج. إذن تعتلي السنة الطفل.

مغامراتي التي أركب مازالت في البحر. ولكنها تجاوزت منطقة الهيجان. ملأ والبحر أمامي ووراءي كيف أسيّر قاربي ؟ إني أبحث عن الماضي. أبحث عن الآتي. أبحث عن الاشياء الجميلة في الحاضر. كيف أعيش أيامي ؟ كيف أجني من السنة بعض السنة؟.

(١٧)

البحث عن الماضي يعني استرجاع اللحظات الجميلة فيه. ويعني الاستفادة من مساوئه لتفاديها الآن. الماضي بلا شك ليست له حقيقة، ولكن له حالات. والحالة مهما ثبتت فليس لها وضع محدد. إن الماضي حالات بمعنى انه يحتمل كل دلالات التلون. إنه يتشكل كلما استرجعناه، ولكن ليست لتشكله صيغة ثابتة. إنه موجود دائما في حياتنا، ولكن كلما قاربناه تبدي في تشكل جديد، وكل تشكل حالة. وكل حالة تستمد تركيبها من الراهن.

يتبدى لي الماضي في شكل حالات أحن إليها. ويتجلى لي مركز الثقل فيها. إنه البحث عن السراب. هذا هو الترتيب العلائقي وهو المسند إليه. وبه تتعلق كل الترتيبات المكونة من اللحظات المكونة من سير دائب. غدا تبتدئ سنة جديدة تضاف إلى هذا العمر. وكل سنة تهاجم الواحد في داره. تدخل باستئذان. ولكنه استئذان المتغلب الذي يتواضع. ليست للسنة حقيقة في ذاتها. انها حالة. ولكنها حالة طويلة تتشكل باستمرار طبقا لحياة الراهن. انها بنية تتهدم باستمرار وتنبني باستمرار. ونحن لا نلم بها كاملة.ولمن نلم بتبديها لنا في الراهن منا. وهى إذ انها حالة، فمعناه أنها قائمة فينا. دون أن يعني ذلك أننا في اتحاد وجود معها. ولكننا نتبادل التأثير والتأثر. لأننا إذ نستمر نحن – أحيانا – في التهدم دون

انبناء، تتكسر السنة يتكسرنا. إنها مثل البناء الفوقي بالنسبة لنا نحن البنية التحتية. فهى تستمد علائقها من أساس علائق الواحد منا. ومع ذلك فإنها هى ونحن ندخل في شمولية تسير وتسير.

(١٨)

ننتظر شيئين مهمين. أولهما وصول المنحة. وأهميتها لا تحتاج إلى نقاش. فليس لنا هنا جميعا مورد مالي نعيش منه. حتى الحصول على مال من المغرب غير ممكن. وكل امكانياتنا المادية لا تستطيع أن تسير بنا أكثر من شهر آخر. هذا في حالة القيام بعملية تكامل بين الافراد كلهم. باستثنائي أنا طبعا لانه ليس بوسعي تقديم شئ. ولكن بوسع الاصدقاء الاخرين التعاون وتمطيط المدة إلى شهر آخر على الاكثر مع مزيد من التقشف. والاخبار تصلنا من المغرب متضاربة. فمنها ما يقول إن المنحة في الطريق إلينا، ومنها ما يقول انها متوقفة في انتظار شهادة التسجيل النهائية. وثاني الشيئين هو موافقة أمن الدولة على وجودنا. فبدون موافقته لن نحصل على التسجيل النهائي.

(١٩)

ها أنت ترى كيف أن الايام تمر وتنقضي تلك الايام. وللايام آيات وهى لا تنام. فهى تعرف الجزئيات والكليات. وتعرف صورة

الانسان ومفهومه وقياسه واستدلاله وتقيم عليه البرهان. هاأنت ترى الايام. وتلك آياتها قائمة مهما طال الزمان. فهى تفرق بين المحب ومحبوبه وبين الزهرة ولونها وبين اللون ولونه. أقول أحيانا. والاحيان أحيان.

ففي أي حين من الاحيان نبادر ونتصرف. والانسان ألوان وأحيان. ومعجزاته ثابتة بالبرهان فسرح البصر. انفذ إن استطعت أن استطعت أن تنفذ لكن بسلطان. وتأويل السلطان في هذا المعنى هو الزمان. وهذا واضح من خلال السياق. وتأويل السياق في هذا المعنى هو السلطان لأن لونها واحد وحينهما واحد.

تلك الايام تمر وتنقضي وهى لا تنام. وتأكل علينا وتشرب وتلعب.

(٢٠)

في يوم ما واليوم عمر، كنت شاردا في ابن سليمان. وفي آخر كنت شاردا في اكادير. وأنا اليوم شارد في القاهرة. وشرود الايام يختلف عن شرود الايام. والعمر ليس هو العمر. ومكان الحدث ليس هو مكان الحدث. وإذ أحكي أني ولدت شاردا وظللت كذلك، أضيف: َمازلتُ شاردا مرة أخرى ليس في الاحلام أو بالاحلام. ولكن الواقع وبسبب الواقع.

لا أستطيع أن أدرك القاهرة بخيالي لحد الساعة. فهى كبيرة جدا وتعادل عدة مدن من مدننا الكبيرة في دفعة واحدة. وكل جهة قصدتها أجدها مركزا للقاهرة. ومع ذلك مازلت لم أر القاهرة الجديدة ولا القاهرة التاريخية السياحية. وليس ذلك عني ببعيد وأنا الذي يظل طول النهار يهيم دون هدف. وحتى الدراسة مازالت للاسف غير ممكنة. ومللت من التردد على الكلية من غير نتيجة ومن غير أن أصادف واحدا يمت لي بصلة. كأن الارض انشقت فسقطت وحدي دون الناس. أو كأن الناس سقطوا وحدهم دوني. كأن الارض انشقت فسقطت الارض في الارض وبقيت وحدي.

(٢١)

ابتدأت الدراسة هذا الاسبوع. وهذا موضوع آخر. أما الترتيبات الادارية فقد أنهيها غدا. أوضاعي مضحكة ومبكية، سارة ومحزنة. والنيض في أقصى درجاته. وكلا الوجهين له صفة المرارة. هنا طلبة مغاربة عبارة عن مجموعات. وقد جرت نقاشات بهذه الشقة وكان من المحتمل أن أبدأ من جديد في البحث عن سكن. لكن انسحب أفراد وبقى أفراد. نحن الآن أربعة وقد رحل خمسة. هذه الشقة جميلة واسعة ومفروشة بما في ذلك حاجيات النوم والمطبخ والضيافة. وأنا مضطر للعيش هنا رغم أني قادر أن أعيش في أي موضع حتى لو كان من القش كفرخ الحمام البري الذي

اصطاده الاطفال. والاختيار ليس من حريتي فأنا مجبر. وقد قلت لك إني أشعر منذ البداية بشئ يقودني. المأساة في هذه المأساة فهو ان ميزانيتي لن تصل بي إلى زمن. لن يكون بجيبي قرش واحد ويظهر اني الوحيد في هذه الحالة.

قررت أن استبعد التفكير في المأساة لان ذلك سينغص علّى حياتي. السر أن هذه مغامرة. ومازال السندباد يشد الشراع في اتجاه قد يصادف فيه جزيرة خضراء وقد يصادف جزيرة مقفرة وقد لا تجد سوى البحر.

(٢٢)

لقد افتقدتك كثيرا. وكنت أتمنى أن تكوني معي. لأني متيقن أن الحياة في القاهرة ستعجبك. ولكن هى الايام. وليس عليها من ذنب. وإنما هو علينا. مرة نحن لها ومرة عليها. ومرة نحن تحتها ومرة بينها ومرة ومرة إلى آخر المرات. حين تصبح المرات مرة واحدة. هى الأيام وهم نحن. لاشك أن الامصار التي نزلت بالمغرب أدخلت الفرحة في القلوب. وبخاصة قلوب الذين يحبون الامصار ويحبون الأزهار ويحبون الانهار ويحبون الاقمار. وكل ذلك على وزن أفعال لانهم يحبون الافعال أيضاً وبخاصة ما تعلق منها بالامصار والازهار والانهار والاقمار. أين قمرك يا ترى ؟ هل هو في جيبك أم

على صدرك أم في أصبع رجلك. معذرة للقمر إذا كان يضيق ويتسع حسب مقام السامع.

أن الايام تمضي. والذكريات تبقى .. والاحلام تبقى أيضاً.

(٢٣)

اليوم في وزارة التعليم أخبروني أن جوابا جاء من الشؤون العربية يتعلق بطالب مغربي. قد لا يكون خاصا بي. وقد يكون سلبيا. فإذا كان خاصا بي وكان إيجابيا فسيلزمني بعين شمس، وإذا كان خاصا بي وكان سلبيا فسيلزمني بمغادرة التراب المصري .. وتلك كبرى الطامات الطامية في طمى مشاكلي.

منذ يومين أو ثلاثة وجدت نفسي أعود لنفس الحالة النفسية التى عشتها خلال الاسبوعين الاولين لوصولي مصر. وهى حالة القلق والتوتر والاكتئاب. واصبحت من جديد أفكر في المصير المجهول الذي ينتظرني. إذا عدت لعين شمس، كيف أتدارك الدروس التي لم أحضرها وبخاصة ان عين شمس تجبر الطالب على إنجاز بحث طويل يضاف إلى المواد الكتابية التي يمتحن فيها الطالب قصد الحصول على شهادة السنة التمهيدية للماجستير. وإذا رفضت كيف اعود للمغرب، وأنا لا أملك تذكرة الرجوع ولا مقابلها المالي ؟.

لا من أقصد ولا من أتجه إليه. وبالقوة هذا الواقع مقابل ضعفي. لم هذه الامواج تتقاذفني ويجرفني عكس المد للوراء ؟ يوم السبت سأعرف هذا الامر. سأتعرف على شكله ولونه وصيغته. سأتعرف على ملامحه ولون عينيه ولهجة لسانه. هو أمر على كل حال فهل يكون من نوع الامور التي تتآمر؟

(٢٤)

غدا السبت. سأستيقظ حوالي التاسعة. أتناول وجبة الفطور وأركب الحافلة إلى ميدان التحرير. ومن هناك أمشي على القدمين إلى القصر العيني حيث وزارة التعليم العالي.

وغدا السبت سيتصل بعض الطلبة بالسفارة المغربية لمعرفة آخر أخبار المنحة. فقد يكون يوم غد حاملا ما يسر كما قد يحمل ما يتعب. وتلك الايام. يوم علينا .. وآخر علينا .. وآخر علينا.

(٢٥)

الذي حدث أنهم لن يطردوني من مصر. سأبقى فيها ولكن شرط تغيير الجامعة. فقد علمت في وزارة التعليم أن موافقة أمن الدولة جاءتني مقرونة بعين شمس. وأني يجب أن أجدد الاتصال بقسم الوافدين إذا رغبت في تغيير الجامعة. غير أني يجب أن أجدد الاتصال بقسم الوافدين إذا رغبت في تغيير الجامعة. غير أني لن

أحاول شيئا من ذلك. سأعود لعين شمس الجامعة التي أحببتها منذ وصلت إليها . سأعود و أتحمل جميع الصعاب. أطلعت على مواد المقرر في هذه الجامعة و على أسماء الأساتذة فأعجبني كل ذلك.

سأسحب ملفي من جامعة القاهرة و أعيده ثانية لعين شمس. لكن لابد أولا أن نتوصل الجامعة بجواب الأمن الذي قلت لك عنه. ثم لابد أن اعرف هل هى مستعدة لتقبل ملفي مجددا بعد أن سبق لي سحبه منها. أرأيت إذن كيف هى الايام ؟ يوم علينا، وآخر قد يكون لنا. لم لا ؟

(٢٦)

في أرض الغربة يصبح لكل شئ يذكرك بالوطن طعم كرائحة القرنفل الذي كنت أشمه في رأس والدتي. تكون لحظة سعيدة تلك التي ترى فيها رجلا أو امرأة تلبس جلبابا في أحد الشوارع. يدفعك الحنين لأن تبدي تعجبك و إعجابك فتسأله : هل أنت مغربي!؟.

كل شئ يصبح له معنى فوق المعنى الأصلي. السيجارة المغربية التي يحدث أن تقع بين يديك كالعصفور الشتوي أيام الصيف، الشاي الأخضر الذي كل مرة تعده تشفق على إتمام شربه حتى لا يفوتك تأمله، الأغنية المغربية، الجريدة المغربية .. كل شئ له معنى فوق المعنى .

في أرض الغربة زمن يلبس الحقائق الصغرى حقائق عظمى. وتجدني شديد الحرص على بعض الاشياء البسيطة جدا: احتفظ بعلبتين فارغتين واحدة للشاي والثانية لمسحوق الصابون واحتفظ بعلبة ثقاب لا أستعملها الا في بعض الحالات الاستثنائية. وكلما وضعتها في يدى تأملت الصورة المرسومة عليها.

وتذكرت أيام زمان..

(٢٧)

كانت جولة هذا اليوم رائعة جدا في اتجاه جنوب القاهرة. لم أستطع أن أبلغ ما وراء حدودها. قلت من الاول إن القاهرة هائلة وأكبر من أن يحدها البصر. دخلت في مناطق الريف حيث تنتشر أشجار النخيل بكثافة. وحيث الفلاحون يزرعون الخضراوات ونبات البرسيم الذي يحمله عادة أصحاب العربات المجرورة بواسطة الخيل أو الحمير في المدينة. حيث يقدمونه لدوابهم في كل وقت يتوقفون في انتظار زبون جديد. رأيت هناك الفلاحات القرويات بلباسهن الملون ونحافتهن وأطفال الريف في عدوهم ولعبهم ورعيهم للجاموس وقطعان الغنم و الماعز واستئناسهم بركوب الحمير المتميزة في الريف المصري بلونها الأبيض. ورأيت في هذا المكان الترع المشتقة من النيل، بل النيل نفسه قيل أن تلوثه القاهرة.

تسمى القرية التي وصلت إليها مشيا وشربت كأسا من الشاي في أحد مقاهيها الشعبية، مدينة النقرس.

(٢٨)

قضينا يومين كاملين في بورسعيد. كانت رحلة جميلة غيرنا فيها الجو الذي نعيشه منذ ثلاثة أشهر في القاهرة. بورسعيد مدينة صغيرة تبعد عن القاهرة بأزيد من مائتي كيلومتر. لكن المواصلات إليها موجودة ومريحة. وهى غير مزدحمة بالسكان ورخيصة الطعام. وهى على العموم سوق معفاة من الضرائب الجمركية. السلع فيها غير مهربة بل مستوردة. أما التشدد فهو في الخروج بالسلع خارج بورسعيد. ولكن رجال الجمارك تساهلوا معنا لما عرفوا أننا مغاربة. هذا بالإضافة إلى أننا لم نحمل معنا مقتنيات غالية كالإلكترونية مثلا. وكل ما اقتنيناه بعض الملابس وحاجيات الحمام. أما يوم أمس فقد قضيناه في المعرض الدولي للكتاب حيث اشترينا كتبا كثيرة. والغريب أني لم أستطع الحصول على بعض الكتب المعينة ككتاب " فن الشعر " لأرسطو. ليس في المعرض فحسب بل في مكتبات القاهرة نفسها.

ومن المؤكد أني سأعود للمعرض غدا مع العلم أني أنفقت كثيراً بين بورسعيد والمعرض. والواجب أن أقصد في النفقات لأن المنحة

لا تسمن ولا تغني وأنا هنا مقطوع من شجرة والشجرة التي أنا مقطوع منها يابسة واليبس الذي هو صفة لشجرتي جاف.

(٢٩)

السنة الماضية في فاس، جاء وقت حديثك فيه عن ذكرياتي. وكان ذلك لهدف أن أخبرك بها. ويظهر لي الآن أني قد استرجع معك الذكريات مرة أخرى. سواء التي تعرفها أو التي لا تعرفها. وسيكون ذلك مناسبة لعشق الماضي على الرغم أني مازلت لم أكتب إليك بالشكل المطلوب عن حياتي هنا من حيث العيش والدراسة والحياة. ثلاثة محاور متداخلة يجوز الفصل بينها إجرائيا للمساعدة على تفسير ظاهرة وجودي. عفوا غيابي. انا لا أؤرخ للمرحلة .. فالتاريخ عارض في يومياتي. لأني لا أريد كتابة اليوميات ولكن فقط كتابة يوميات للكتابة فأفهمني.

ومازالت تجربة البعد – كما هو مفروض – لم تخلق في الرغبة العميقة الجارفة والمقرونة بالانسياب والغزارة في الكتابة سواء في اليوميات أو الرسائل. فكما تلاحظ في يومياتي مازال الايقاع لم يتغير. وبعد انقطاع دام سنة جاءتني رغبة ما في الكتابة فكتبت قصيدة ضمنتها أشياء قديمة .. ثم جاءتني القصيدة مرة ثانية فيما بعد لكني كتبت منها مقطعا واحدا. ولا عجب، فالحياة مقاطع.

(٣٠)

ها أنت تراني أعد بالشهور وليس بالايام. أصبحت الشهور عملة صعبة أتعامل بها مع الزمن. لكني لا استعجل هذه العملة. أنا أعرف أن الشهور كثيرة وأن التفكير فيها قد يحزن. فهذا الزمان صعب وسأزيد صعوبته لو فكرت فيه. الزمان مثل البعير. (أشدد على هذا التشبيه البشع لانه في أمثالنا كذلك) يجب أن تلاطفه وتحذر منه. لانه ليس غبيا وأصما. وليس سهلا لتركبه كيف شئت. فهو يحمل في قلبه حقدا متراكما قد ينفجر في أي وقت. فاحذر أن تقوم بما يسبب له الانفجار. حاذر وستصبر ما تبصره، فتفقد أعصابك وتجمد، أو تصاب بالدوخة والرعشة، أو تنحجر وتصبح مسحوقا تلصقه الريح على النوافذ في لون داكن كالغبار الذي يطلي عمارات القاهرة.

أفكر أحيانا في أفضل الصيغ التي أبني فيها توازني مع الوقت الآتي. اعتبر الاتي معطى لامفر منه فلا أتألم كثيرا. وأبحث كيف أعيد صياغته ليكون آتيا معي وليس ضدي، أُنظر كيف تراني ملزما بالبقاء في القاهرة طيلة صيف هذه السنة لأستعد للامتحانات. سينتظرني الاهل ويأسفون لعدم عودتي. وكذلك يأسف الاصدقاء وكذلك أأسف بدوري.

(٣١)

أما المغرب فبعيد بعيد لا يرى سوى في المجرد .. صور ومفاهيم وأبيات شعر تثير العواطف والخيال وتقود المتذكر لعوالم تبعده عن عوالم. أما القاهرة فمعروف عنها في الحديث المشهور انها تتعب الداخل إليها لانها تربه ولا تعطيعه لا من حيث يدري ولا من حيث لا يدري. ومرجع ذلك لكون يدها مغلولة وراء ظهرها لا تبسطها أبدا .. مرت اشهر كاملة. هل كلها مدة للذي يرى فقط ؟ أحس كأنك انقطعت عن الماضي وبدأت مرحلة جديدة .. هذا مجرد احساس قد يكون كاذبا .. الان وقد انقطعت الاسباب بينك وبين الماضي، أريدك أن تعيش حاضرك .. أن لا تحترف الاوهام التي كنا نحترف. فاذا عزمت فتوكل. سر حيث قادتك قدماك حتى تصادف أنهارا ثلاثة. الاول من العسل والثاني من الزبد ربما زبد البحر. أما الثالث فمن الخمر. اشرب حتى كأنك الاخطل يدخل على الخليفة الاموي. تلك نعمة تبقيها خالدة.

(٣٢)

اعتقد اني لم أحدثك عن الأصدقاء الذين يسكنون معي ولم احدثك عن الحياة اليومية التي نعيشها داخل المنزل ولا حتى عن بعض المشاكل التي نعيشها بشكل جماعي وبعض القضايا التي

تشكل بالنسبة لنا موضوعا طريفا في الحديث. وأكتفي هذه الامسية بان أشير إلى موضوع واحد من تلك المواضيع. وربما من أهمها موضوع المرأة. لم العجب ؟ ألست في موقفي ومعي ؟ الم تكن تتلذذ أيام كنت أحدثك عن علاقاتي ايام زمان ؟ فعلا هو موضوع أراه مهما، لاننا كلنا نتكلم فيه. وما يهم الجميع فهو للجميع. أما الدافع إليه فيختلف من بيئة لبيئة. وأمام حصار الغربة فلا تنعشنا سوى عطور النساء وتفاصيلهن في الشارع.

نتحدث ليس فقط عن الرغبات الجنسية ولكن أيضاً عن التركيب النفسي والاجتماعي والفزيولوجي للبنت المصرية وعن مسائل الختان والأعراف والزواج وأنواع العلاقات وغير ذلك. لكن اكثرنا شطارة مازال لم يستطع إقامة علاقة ناجحة مع فتاة مصرية.

كل واحد يسعى ليجد بارقة امل تربطه عاطفيا بالقاهرة. لكن مجموعة منا لا تجد في الاخير سوى الخمر كمخلص مؤقت ينسى ويذكر .. وأمسية البارحة كانت جد رائعة .. حتى الذي لم يشرب شارك الآخرين فرحتهم. استعرنا جهاز " كاسيت " واستمعنا لمارسيل وعزيزة جلال وناس الغيوان ونجاة اعتابو، أقمنا هذا الحفل لنشارك أحد أصدقائنا الذي قال إنه يجب أن يحتفل بالذكرى الثانية لميلاد حبه ..

(٣٣)

الطقس هنا غير مستقر. مرة حار جدا ومرة بارد جدا ومرة عاصف. تأتينا زوابع من الصحراء فتتحول سماء القاهرة وشوارعها إلى غبار كأن القيامة توشك ان تقوم. أما الامطار فلا تسأل عنها. هم يقولون إننا في فصل الشتاء مع اني لم أر مطرا بالقاهرة. لا توجد سوى بعض السحب العابرة. ومع ذلك فقد كنت معجبا بطقس الأسابيع التي مضت، لانه معتدل حتى كأنك في الربيع ولا ربيع. أستأنس بدفء الشمس وصفاء السماء فأنقل نفسي إلى ربيع الذكرى.

الفصول هنا تتحدد بالحرارة وحدها. مثلا فصل بارد وفصل معتدل وفصل حار. ولي مع الفصل الحار موعد داخل هذا الزحام. مواعيد تتابع فرادى وجماعات.

(٣٤)

أصبحت مترددا بين العودة للمغرب هذه السنة أو قضاء عطلة الصيف بمصر وانتظار السنة القادمة .. فأمامي امتحان في اكتوبر وأنا الآن في بداية مارس. للبقاء والذهاب معا سلبيات وإيجابيات .. ومن أصعب سلبيات البقاء هو أن أظل سنة أخرى مبعدا عن هذه البنية المغلقة المكهربة التي تمشي أمامي .. ثم كيف

لي أن أقضي شهرين وحدي في عز الصيف حيث قد تصل الحرارة درجة 44 أو أكثر ؟ كيف اجد سكنا ؟ السكن متوفر ولكنه غال اذ ليس بوسعي تأجير شقة كاملة. لا تقنط والنتظر فأمامك المرحلة.

(٣٥)

الرسائل بالنسبة لنا لها رمزية عميقة. فما أن تصلك رسالة من المغرب حتى تسبق إلى خطفها وفتحها باسرع ما يمكن قصد التهام ما ورد داخلها. وتجد كل الاصدقاء يلتفون حولك ويسألونك من عند من جاءتك هذه الرسالة ؟ ما هى اخبار المغرب ؟ هل هناك أمطار ؟ يقولون لك: ما أسعدك جاءتك رسالتان مرة واحدة أو جاءتك يوم أمس رسالة وهذا اليوم رسالة .. ويتحسر أحدهم قائلا: أما أنا فالذي يحيرني أني لم أتوصل برسالة منذ شهر .. لماذا لو يكتبوا إلّي ؟

أحد أصدقائنا ظاهرة وحده. فهو يكتب رسائل طول اليوم، وأحيانا تتجاوز الرسالة عنده خمس صفحات. يكتب في البيت وفي المقهى وفي المدرج وفي أي مكان. دفاتر الرسائل تنقضي عنده بسرعة لا تتصور. وهو أول من يقوم في الصباح للبحث عن ساعي البريد، واذا لم يجده يسأل عنه كل من رآه من أقصى الدرب إلى اقصاه: " البوسطجي " هل مر من هنا ؟

(٣٦)

الواقع أن فاس وواقع الجامعة في فاس يظهر لي الآن وأنا بعيد جدا عنه مكانا وزمانا ولست بعيدا عنه ذكرى. يظهر لي بشكل متميز. الان فقط ادرك بعض الاشياء التي كانت غائبة عني فيه وأنا اعيشه بمثله وبكامله.

لقد انفلت ذلك الواقع من يدي بكل حلاوته ومرارته. انفلت كالماء من بين الأصابع. انفلت هو أم افلت أنا ؟ من انفلت كالماء من بين أصابع الآخر ؟

أتذكر فاس فتأتيني الذكرى في حد ذاتها وتأتيني ذاتها في حدها. تأتي بعد انقطاع راجع للظروف الخاصة التي تعرفها. ظروف مليئة بالتوقعات والانتظارات،لكنها تبقى دائماً في اطار حدودها المرسومة والمحتومة باسباب نعرف بعضها وبعضها يتولد دون سابق انذار.

أرسمها وأعانق الرسم المحموم. هناك في ساحات الجامعة من كلية الآداب إلى الحي الجديد في أيام مجده، مرورا بكلية العلوم والحي القديم ومداخل المطعم الجامعي، أستحضر الجامعة بفضائها ثم باسوارها. بشوارعها المبللة بالطين الاحمر. تختفي كل مشاكل تلك البقعة. تختفي كل المرارة التي قاسيناها هناك. لا يبدو في الرسم غلا المجسدات. علامات تشير وتوحي وتولد الحنين.

وهكذا يعشق الإنسان دائما ماضية مهما كان مؤلما وهكذا تولد الغربة دائما حنينا للوطن مهما كان قاسيا.

أستحضر ملامح في بساطة الربيع وعمق الخضرة. لم نلتق منذ زمان وقد يمر زمان اخر. وكم زمان يمر وتسير الأيام بخطاها الثابتة وكأننا ننسى حتى أنفسنا. كيف لا يستطيع هذا الكائن ان يسمع صوت أمه وقد تعود سماعه لسنين طويلة ؟ كيف لا يجد نفسه جانب والده ؟ كيف لا يرى أحلامه القديمة إلا عبر الذكريات ؟ ويريد أن يرى كل الوجوه التي أحبها فإذا هى محض سراب. وتسير الأيام وهذه قصتنا وهذه حكاية القصة.

أخذت التسجيل المبدئي من جامعة عين شمس ولم يبق الا التسجيل النهائي. وذلك لن يتم الا بعد ان تدفع السفارة نيابة عنا رسوما جامعية قدرها ٦٠٠ جنيه استرليني للطالب. الجامعات المصرية كلها تطلب مبالغ باهظة مقابل السماح للأجنبي بالدراسة. لكن السفارة لن تدفع هذا المبلغ الا بالحصول على المنح من المغرب. أي أن التسجيل النهائي يبقى معلقا مثلما الطالب معلق.

(٣٧)

مازلت في مصر كما تعرف، أحاول بين الفنية والاخرى ان أعرف كيف تطلع الشمس وكيف يهدي القمر أضواءه لكل المحبين

والعاشقين والمغتربين في بقاع الأرض. أرى القمر وكل النجوم التي كنت أراها في بلادي. أحاول أن أكلمها وأبعث معها سلامي.

مازلت في مصر ومازالت الشمس والقمر يحجبان عني اسرارهما.

(٣٨)

لا لسنا فرنساويين. نحن مغاربة قبل كل شئ ولغتنا هى العربية. ولكن من سيصدق هذا الكلام ؟ كلما سمعنا سامع نكلم بعضنا إلا سألنا بفضول: الاخوة عرب ؟ – نعم – لكن لم لا تتكلمون بالعربي – نتكلم .. ألا تسمعنا ؟ – يلي ولكن هذا ليس عربيا. وما هو إذن ؟ – لو كان عربيا لكان ككلامنا – هو كلامكم هو العربي الوحيد ؟ – نعم .. كل البلاد العربية تعترف بذلك. انتم من أي بلد والنبي ؟ – نحن من المغرب. آه. أنا كنت حاسس أنكم تتكلمون بالفرنساوي. لان فرنسا استعمرتكم. وقبل كل شئ أنتم قريبون من أوروبا وأخلاقكم فرنساوية.

قليل من يصدق لو حاولت أن تقنعه أن لنا لهجة عربية. وأننا نؤمن بالوحدة العربية. كثير يجهل عنا كل شئ. صاحبة كشك سجائر قريبة من سكنانا سألتنا هل المغرب " حتة " من مصر ؟ طالبة في الثالثة جامعي سألتنا هل نحن مسلمون ؟ هناك من يسألنا هل عندنا دور سينما وأغان وعمارات عالية وجامعات. هل رأيت إذن إلى أي

حد يكون إعلامهم مقصرا في التعريف بوطننا. لكن أغلب المصريون إن لم أقل كلهم يرتاحون إلينا كمغاربة ويحدثوننا عن مشاكلهم. كأننا إخوة من الدم والقرابة. وهم يعرفون المغرب من خلال سمعته السياحية وشهرته في لعبة كرة القدم. وهم يعرفون المغرب من خلال سمعته السياحية وشهرته في لعبة كرة القدم. ولكنهم لا يعرفون أية تفاصيل عن مستوانا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي إلا من لم يستسلم لحصار الاعلام المصري.

(٣٩)

لم يكن ذلك اليوم كباقي الايام. ودعتني العائلة في محطة سيارة الأجرة بالدموع. كانت خائفة على نفسي. لم يصحبني أحد من الأهل للمطار. السبب أني استنفدت كل إمكانيات العائلة. لم أترك في جيبهم مليما واحدا. بل لقد كنت مضطرا لبيع بعض الاشياء الشخصية لأغطي نفقة وصولي للمطار.

في سيارة الأجرة كنت أفكر في شئ واحد، كيف أركب الطائرة ؟ يمكن لك بعد ذلك أن تتصور مشهد مسافر محمل بالحقائب يدخل المطار لأول مرة. أين سيضع حقائبه وكيف يجتاز نقط المراقبة والجمرك. يأخذ هذا المسافر حقائبه بنفسه إلى مستودع الطائرة لأنه يجهل الحزام المتحرك الذي وضع لهذه المهمة. وفي الطائرة يكون عليه أن يتأقلم مع الظروف الجديدة

ويستمع على الأقل بتفقد ملامح الوطن الذي يغادره من خلال النافذة الصغيرة.

في الطائرة كنت أفكر في شئ واحد، كيف أصل. ماذا أعمل ؟ قضيت الرحلة كلها صامتا جاهلا كل شئ عن القاهرة إلا ما يعرفه كل واحد عن عاصمة مصر. في أثينا غيرنا الطائرة. ولما حلقت بنا فوق القاهرة في الليا خفت على نفسي أكثر من أي وقت. لأن الاضواء المترامية على مسافات أدهشتني وأدركت أنه علّى أن أكون وسطها بعد ساعة ونصف أو أقل.

ولكنني قررت بكل هدوء أن لا أدخلها ليلا. كذلك قضيت ليلتي منزويا في أحد أركان قاعة الانتظار المخصصة للخطوط المصرية أغفو وأصحو.

أبصر من عيون احمرت من التعب وجوه أناس ينتظرون ذويهم. حاولت المقارنة بين وجوه أراها وأخرى كنت أراها في التليفزيون فوجدت فرقا كبيرا. أخذ مني التعب واستنفدت سجائري. بين الفنية والاخرى كان بعض المصريين يدخل معي في حديث عابر ويناولني سجائره. فالمصريون كرماء في السجائر. حاولت أن أتذوق الطعم الجديد للسجائر والطعم الجديد للكلام والطعم الجديد للوجوه. وأخذت بعض المعلومات عن القاهرة ولكني رفضت بعض المساعدات حتى لا أروح في " داهية ". كان كل واحد في قاعة الانتظار على يقين من أني غريب. بل غريب مبالغ فيه.

(٤٠)

صدقني إذا قلت لك إني لا أعرف لم أكتب هذه اليوميات. هل لأني تعودت على ذلك منذ سبع سنوات أو أكثر ؟ هل لأني تعودت أن اكتب ؟ أود أن أحدثك عن بعض الاشياء الشخصية جدا جدا. عن بعض التفاصيل. ليس في ذلك بأس ما دام لن يسمعنا أحد. إلا أني خشيت من أن أكون ثقيل الظل. وخشيته أن تنعتني بالمراهقة.

هل أحدثك أم أحدث نفسي ؟ هل أكتب لي أم لغيري ؟ لا أكتملك أني كثيرا ما أجد حرجا في الكلام بكامل الشجاعة. لاني أخشى أن يطلع عليه آخر. فهو شخصي. وكل ما هو شخصي يثير الفضول. بين أن تكتب عن نفسك لنفسك وبين أن تكتب عن نفسك لغيرك تختلف كل طرائف الاعتراف والمكاشفة. وأنا لم أحدد بعد هذا الفاصل.

لم أفكر في نشر هذه اليوميات. لاني متأكد أن أي ناشر سيقول لي: دعك يا إبني من سرد الحقيقة. فالناس تحب سرد الخيال. ودع سرد الحقيقة لأصحاب المكانة في الحقيقة. لكني متأكد أنه يوجد من يريد معرفة مخلفات هذه المغامرة المغتربة، وأن إنسانا ما سيوصل هذه اليوميات للقارئ. لأن هذا الإنسان له إحساس رفيع بحيث يقدر سر اللذة والمعاناة في لحظة المكاشفة.

(٤١)

الايام تجري بشكل سريع. بالامس كنت أستعد للمجئ لمصر. والبارحة فقط وصلت. واليوم انقضت خمسة أشهر على وجودي بها. لا أعرف ما الذي قمت به خلال هذه الاشهر. فأغلب وقتي في البيت أو مكتبة الجامعة. في المكيبة يمكن على الأقل اختلاس النظر ثم كلام فكلام من غير موعد حرام. أحسست بالسأم أخذت أول حافلة باتجاه ميدان الجيزة. عند أسفل الكوبري مباشرة عقدت صداقة حميمة مع دارين للسينما، شعبيتين جدا جدا، واحدة منهما مكشوفة على الهواء. كراسيها من القصب. على حدها من اليمين أشجار أزعجتني في أول يوم إفرازات الطيور البائتة فيها. بعد ذلك بدأت أختار الكراسي الوسطى. في الشمال عمارة عالية يتعمد بعض ساكنيها أزعاجنا بأنوار شرفاتهم. بائعو البيض المسلوق والسندوتشات والسجائر والشاي والمشروبات الغازية لا يتوقفون طيلة مدة العرض ما بين نداء على البضاعة ومشاداة كلامية مع شخص كسر كأسا أو أخفي زجاجة.

لا أتمتع في الغالب بالفيلم الأول. لان ضوء الشمس لا يكون قد سحب أشعته الاخيرة بعد، مما يجعل الصورة في لون الحائط. أما الفيلم الثالث فغالبا ما لا أشاهده لانه غالبا ما يكون من الافلام المصرية الميتة القديمة. أما عن نوعية الافلام فلا تسألني. لا

تسألني عن التثقيف الذاتي. بل اسألني عن القتل الذاتي للوقت. لقد ألفت المكان والجمهور أكثر من رؤية الأفلام نفسها. الجمهور جله من المجندين في الخدمة العسكرية الآتين من الأرياف النائية والباعة المتجولين والعاطلين وما سحى الاحذية وتلاميذ المدارس المهمشين وأمثالهم.

الاصدقاء الذين أخذتهم معي غصباً إلى هذه الدار لم يرجعوا ثانية وفضلوا دور العرض العصرية بوسط المدينة. أما أنا فلا أفضل تلك الدور لاني أحس أنها تسجنني في انتظاري وجلستي ورؤيتي للناس. لا أجد كلام الناس في تلقائيته وبساطته. هل هناك أصدق من جمهور يقوم ويقعد وصفق ويصفر بكامله تبعا لأحداث الفيلم ؛ أشعر أني وهذا الجمهور مشتركان في الحرمان والاحباط. فأتعزى وأتسلى.

(٤٢)

ويمر هذا الشهر. لا ينزل المطر. فمكان المطر في قلبي. مطري ليس من هنا. أمطار تنزل على المغرب. للأمطار أوراق خضراء وأزهار حمراء تتفتح حتى تحتل خريطة دمي وأصبح مشتعلا تحت المطر. أضئ لا انطفئ ويبرز لونها كالثلج. كسحر أم الربيع في منابعه الاولى. إنها أم الربيع وأم الجبال وأم المطر. تضئ لون القمر ومجريات أودية الأطلس.

يمر هذا الشهر في اختزال وعمومية كبيرة كسابقيه. لا نناقش قضايا نقابية أو سياسية. كل طالب في غمده تكسرنا الريح وتتوهنا في الشوارع. آمالنا معلقة على رسالة نتوصل بها ومنحة نعيش منها وامتحان ننجح فيه ووطن نعود إليه.

(٤٣)

لما كانت القاهرة في كل هذا الحجم، سموها مصر. ولما كان النيل في كل هذا الحجم، سموه البحر. يميل الناس هنا للتضخيم فيقولون: عظيم، هائل، رائع، أحسن بلد، أحسن ناس، قد الدنيا .. إلخ. غير أن تسمية النيل بالبحر غير مبالغ فيها. فلا فرق بينهما إلا في الملوحة.

كان النيل في حياة المصريين منذ القدم بمثابة إله. فلولاه لكانت مصر صحراء قاحلة لا عشب ولا ماء. لكن النيل الاله وصل مصر وتواصل معها. حمل إليها سلة من فاكهة الأدغال الافريقية عبر الاف الأميال. وأبصر وجهه في الصعيد والجيزة فلم يجد إلّا هما وطنا لحضارته.

كلما مررت من الدقي إلى التحرير أو وسط البلد عبر أي كوبري من الكوبريات الواصلة ضفاف النيل، أثارني منظر الغجر. أولئك الصيادون الذين يعيشون في قواربهم الصغيرة التقليدية. فيها

يتزوجون ويتناسلون ويأكلون ويموتون فيروحون. ثم إليها يرجعون ممثلين في أبنائهم وأحفادهم.

في هذه القوارب تجد الزوج وزوجته وبعض أطفالهما. وفي عرض النيل تجدف الزوجة. أما الزوج فينتشل بصورة مستمرة أحد أطراف الشبكة تاركا طرفها الآخر يتدلى في الماء. وفي أي وقت من الاوقات يمكن لهذا القارب الصغير ان يرسو على إحدى الضفتين لا يولي اهتماما للناس الذين على مشارف الكوبري أو على الكورنيش. هناك بؤرة زمنية بين المتفرجين المتفسحين وبين أهالي القوارب. هذه البؤرة هى صورة النيل. إنها صورة للنظر عند من يمر، ووطن عند الغجر.

(٤٤)

هذا هو مقام العتبة بالذات. وهو المقام الذي لابد أن يوقفك فيه ويجعلك تبصر. سموها كذلك لاستعمال الناس لها للجلوس والاستراحة. وفي أي محطة من المحطات الكبرى للحافلات أو سيارات الأجرة أو عربيات النفر، يصبح اسم العتبة مكتوبا أو مسموعا مألوفا عندك: عتبة، عتبة، عتبة. فإذا ركبت في اتجاه العتبة فستجد أمامك شوارع كبيرة متقاطعة. يميزها كلها ذلك الفضاء المحمل بالغبار ودخان عشرات وسائل النقلوضجة آلاف المشاة.

ولك أن تختار اتجاها تسلكه نحو العتبة. من جهة الحسين أو باب الشعرية أو باب اللوق أو التحرير أو٢٦ يوليو أو رمسيس. غير أن وصولك سيكون متعبا وبخاصة في أيام الحر أوقات خروج الموظفين. هناك مجهودات جيدة بذلت من طرف الحكومة لحل اختناق المواصلات مثل إنشاء المترو وإقامة عشرات الكوبريات فوق الطرق. لكن يا صاحبي من يقدر على إيصال ونقل هذه الملايين ؟ المشكلة تتطلب حلا بنيويا. فإذا وصلت العتبة راكبا أو على الأقدام. وجدت ازدحاما في ازدحاما. لكنك ستلم في دفعة واحدة بكل مصر. هنا مثلما في رمسيس مهاجرون للمدينة من الارياف والصعيد. إذن سترى هؤلاء كالقصبات في الجلابيات العريضة الواسعة. من جاء بحثا عن عمل ومن جاء قضاء لحاجة. وفي العتبة أيضاً، الأزبكية والمسرح القومي ومسرح الطليعة التجريبي. هذا يعني أن عدة فئات من الناس تكون هنا. أضف إلى ذلك وجود محطتين للحافلات.

مما يزيد في مشاكل المنطقة أنها محاطة جنوبا وشمالا وشرقا بالمدينة القديمة ذات الكثافة العالية من السكان والشوارع الضيقة والحارات المتداخلة. هنا أكبر سوق شعبي مصري. وبوسعك أن تتذكر بلدك حين تتضارب حول أذنيك نداءات الباعة الذين يعرضون سلعهم على الارض أو فوق أسرة خشبية. باعة الاحذية والقمصان والسراويل والاحزمة والجوارب والبدل القديمة: يالله أي حاجة بستة

جنيه، ستة جنيه يا ست .. ستة يا ولد. أنت يا مهندس. يا الله فرصة. ستة جنيه ولا غلاء المحلات. تتقاطع الأثمنة وأسماء المبيعات. وتتذكر بلدك حين يداهم فجأة بعض أفراد الشرطة السوق. فترى كل واحد حاملا سلعته على رأسه أو بين أحضانه. فالشرطة المصرية تحارب هذا النوع من الباعة غير المرخص لهم. ليست العتبة ساحة واسعة كساحة جامع الفناء. إنها مكونة من ساحات صغيرة ومداخل وأزقة مخصصة كلها للعرض والطلب. الباعة المكشوفون في وسط الممرات. أما البوتيكات والحوانيت والدكاكين ومصلحو الساعات وبائعوها وأصحاب عصير القصب والفراولة والمانجة ومحلات الكشري والفول، ففي أماكنهم من جناب الممرات. في هذا الملأ الذي اسمه العتبة أنزلني صاحب التاكسي أول مرة وقال لي هذه كلها عتبة. انزل واسأل فيدلونك. كنت محملا بكل أمتعتي بعد رحلة بدأت من المطار لغاية التحرير أكبر ساحات القاهرة الكبرى. ومن التحرير على الاقدام لغاية المنيل بحثا عن بيت شباب. ولما كان بيت الشباب في حالة إصلاح لم يعد في إمكاني التكملة والذيل. أخذت سيارة أجرة بعد مداولة مع نفسي. في العتبة سألت عن الفنادق الشعبية حفاظا على استمراري أطول مدة. وبدأ واحد يرميني لواحد لغاية ما وصلت لمنطقة الحسين مرورا بالأزقة القديمة حيث امتداد سوق العتبة لغاية بازارات الصناعة التقليدية السياحية بخان الخليلي.

في منطقة الحسين تنقلت وأنا فيما أنا فيه من إرهاق وتعب، بين عدة لوكندات وبنسيونات. كنت أجدها إما خاصة بالمصريين أو ليس بها سرير شاغر. أخيرا استقر أمري في فندق الصفا والمروة بخان الخليلي. لكني استشعرت خوفا. خشيت أن أجد نفسي بين زوار ضريح الحسين ورواد الطرق. لأن ضريح الحسين يماثل عندنا ضريح المولى ادريس بفاس.

والناس يقولون إن الحسين بن على مدفون هنا. وجدت نفسي في الطابق الثاني وهو الاخير. في هذا الطابق المستطيل لم يكن هناك أثر للغاشي أو الماشي. أما الغرفة التي اقترحت على فكانت من غير مصباح كهربائي. تنبئ رائحتها ورطوبتها أن الغاشي والماشي لم يغشها منذ أمد طويل. خفت أن أرفض فلا أجد مكانا آخر بعد مرحلة البحث التي مررت منها قبل الزوال وبالنظر إلى أني مازلت لم أنم منذ نمت في بيتنا في المغرب. إذن قبلت. وكان ضمن أمتعتي بعض الاغطية الخفيفة فاختبأت داخلها حتى أقلل من الرائحة العفنة التي كانت تتسرب إلى أنفي من كل ناحية. أني لي أن أتمتع باستلقائي الذي هو كاستلقاء محارب سقط لتوه في حفرة من الوحل. فقد كانت " الناموسية "[1] مقعرة لأن أغلب أسلاكها مقطعة ناهيك عن تمايلها المنبئ بوشكها على السقوط بسبب أي زحزحة. تأملت زوايا السقف حيث أعشاش العناكب وخفت أن تجتاحني

[1] الناموسية : السرير ذو الأسلاك النابضة

الجردان في منتصف الليل. حتى أقطع دوامة التفكير آثرت أن أقوم بلفة حول البنسيون لأتعرف على المنطقة.

في المساء فاجأني مرة أخرى أني لا أرى أحدا في هذا الطابق. كل الابواب مقفلة. الجديد الذي غشى ومشى هو قطيع القطط الضالة التي كانت تتسلل إلى الطابق من بعض الفتحات والنوافذ المكسرة. والقطط حين تتجمع لغط مزعج. رغم ذلك اختبأت في أغطيتي مطفئا ضوء الشمعة التي كانت معي ضمن ما تزودت به وأنا في المغرب تحسبا للظروف. لم يفاجئني مرة أخرى سوى خبط عنيف على الباب: افتح، افتح، افتح يا أنت يا هذا .. افتح يا مغربي انت. افتح بس. لكني لم أفتح. اتكأت على الباب بكل جسمي ولم أفتح. أأفتح ؟ واذا لم يكن بشرا ؟ هل تراه نزل من السطح أم خرج من أحد الأقفال المكسورة ؟ انتظرت لما ابتعد وقع خطاه فحملت السرير ووضعته مباشرة على الباب. وعدت فاختبأت. وهذه المرة نمت.

في الصباح أخبرني صاحب البنسيون انه كان الطارق. لقد كان يريد تغيير المصباح المحروق. وبشرني بنقلي إلى غرفة في الطابق الاول غادرها صاحبها. كانت هذه الغرفة أحسن بكثير من الأولى. بها شرفة مطلة على ساحة مفضية لاحد شوارع خان الخليلي. عند أسفل الشرفة مباشرة إحدى المطابع المصرية المعروفة؛ مطبعة الحلبي التي قدمت الكثير من الكتب التراثية.

كانت بهذا الطابق شغالة مسنة تسهر على تنظيفة وتنظيف غرف النزلاء. يوجد معي على الاقل سكان في هذا الطابق.

(٤٥)

تستغرقني الحيرة حين أفكر في أسباب تدعوني للرجوع وأخرى تحثني على البقاء. الاسباب تتكافأ. فإذا عدت للمغرب لن يكون بوسعي غدراك إحدى نعمه الفالته. لأني مشغول– بالتحضير لامتحان اكتوبر القادم –وفي المغرب أيضاً سأواجه أسبابا مادية أكثر حدة رغم أني سأجدد نشاطي بلقاء العائلة والاصدقاء ولقاء المدينة التي أحببتها وابتعد في الوقت عينه أو ذاته عن هذا الاختناق. أما إذا بقيت هنا فسيكون علّى أن أقضي على الأقل شهرا ونصف شهر وحدي في البيت كأني مجنون أو منفي في دير مهجور. فلن أجد مع من أضحك أو أتسلى أو لمن أشكي همومي. وستكون الحرارة جحيما بحيث لا تسمح بالتفسح لنسيان الكأبة.

قد تقول لي بأن هذا سيتركني مرتبطا بالدراسة والكتب مما سيفيدني وينفعني في السنة القادمة ما دام لن يوجد ما يضيع وقتي. أي أن استعدادي للامتحان سيكون جيدا وبخاصة ان الامتحان في عين شمس أصعب من الامتحان، في جامعة القاهرة. ربما ما تقوله فيه طرف من الصحة. ولكن العلة موجودة. ونسبتها إلى ان الكتب التي تقول عنها وتضيف لها الامتحان، قد طبخت رأسي هى وكثرة

التفكير والتخمين والتذكير. لا أخفى عليك أني أريد أن أضيع الوقت ولكني للأسف عاجز عن تضييعه.

(٤٦)

أهلا بك في هذا الشهر الجديد، شهر ابريل. وهو الشهر الذي تنضج فيه الفواكه. وهو نهاية الربيع وبداية الصيف. وتكون الطبيعة فيه تجاوزت فترة المراهقة، ودخلت النضج. فللطبيعة الان عقل وفكر. وهى تتأمل نفسها وتراجع حياتها السنوية. أهلا بك اذن في هذا الشهر ونحن في بدايته.

أما عن الطبيعة في القاهرة فحدث ولا حرج .. المنتزهات العمومية الخضراء هى حيقة الحيوان وحديقة الأورمان. يمكن ان ترى ضيقها بالناس أيام العطل. والطبيعة تأتينا سنويا معلبة. هذا شأن المعرض الكبير والجميل أيضا. معرض الازهار المستأنسة الذي حَولَّ حديقة الأورمان إلى حلة فيحاء. فقد شاهدت أشبعت فضولا قديما في نفسي. تمتعت برؤية نباتات متنوعة الأصناف. نبتات بحرية وجبلية وصحراوية وأزهار ذات أشكال لافتة النظر.

أما الطبيعة كطبيعة فشئ نادر هنا. تحضرني حالا صورة تلك المدينة العزيزة التي ولدت وكبرت فيها؛ ابن سليمان. تلك التي كتبوا في مداخلها " المدينة الخضراء ". وبدافع من غريزة المنبت والمكسب أحاول ان أجد لحظة مكاشفة مع طبيعة حقيقية خارج

أسوار الحدائق. وإذا كان لابد ان تصل لحالة كهذه فما عليك سوى ركوب الحافلة لمدة لا تقل عن ساعة عساك تخرج من أسر البنايات الرمادية لتفتح جناحيك على الأفق الاخضر في حقول الفلاحين المزروعة برسيما وذرة.

أما في القاهرة نفسها فعليك أن لا تقطع جسرا من الجسور الواصلة بين الجيزة والقاهرة على النيل، دون أن تأخذ لك أنفاسا عميقة من ذلك الهواء المنعش الذي يحرص النيل على احتكاره خوفا عليه من أن يحرقه دخان الكازوال.

الواقع ان الطبيعة هنا تصبح تحولا عميقا في نسق اللغة. إن الكلمات تتخلف عن وقتها وحلمها. تفقد الكلمات ذاكرتها وتصاب بالجنون فيرتفع الصخب في مسافة الكلم. وتصبح كل المكونات المياشرة وغير المباشرة نسقا لا منتظما من التقاطعات.

(٤٧)

قرر الاساتذة عندنا في جامعة عين شمس توقيف الدراسة لانشغالهم بأعمال أخرى وطالبونا بإتمام مواد المقرر. وقد اتصلت هذا اليوم بالدكتور عاطف جودت نصر واقترحت عليه تغيير بعض جوانب البحث المقرر علّي في السنة التمهيدية.

أخيرا فقط سويت الامور الإدارية وأعطت السفارة الرسوم الجامعية للجامعة وحصل الطلبة في جامعة القاهرة على بطاقة الطالب.

كان علينا أن ننتظر كل هذه المدة لنصبح طلبة شرعيين متمتعين بكافة الحقوق بما فيها عدم المضايقة خلال دخول أبواب الجامعة من طرف الحراس الذين يسألون دائما دائما عن البطاقة أو التصريح. مازلت أنا كما هى العادة. وسأتصل غدا بعين شمس لأرى إن كان بوسعي أن أصبح طالبا شرعيا من حقه المطالعة في خزانة الكلية التي من شروطها بطاقة الطالب.

أما عن البحث الذي أنا فيه فقد خطوات فيه خطوات مهمة رغم التعديلات التي كان يمليها على الموضوع نفسه، ومن المرتقب أن أكمله قريبا. أما المقرر فقد خصصت له اشهر الصيف بكاملها سأطبخه ويطبخني ويطبخنا الصيف اذن.

(٤٨)

نحن في الرسائل لسنا دائما في حاجة للأخبار والمعرفة. فنحن في اغلب الاحيان في حاجة للحديث العادي. الحديث عن الحياة التي نحياها والمشاكل التي نواجهها. صحيح أن الانسان قد لا يجد ما يقوله عن الحياة اليومية. وقد يجد ما يقوله ثم يراه غير مهم. وقد يراه مهما من غير أن يجد وقتا مناسبا لذكره. وقد يجد الوقت المناسب فتمنعه الظروف .. الخ.

وهذا منطبق علّى شخصيا مثل الطبق الذي لا يطير فوق المائدة. توجد اشياء كثيرة في هذا المجتمع غير أني طائر فوقها

كالطبق هذه المرة. أكثر من مانع لا يحفزني للغة مطاوعة مناسبة. بالرغم أننا نحن أصحاب الادب لا نتقن سوى الكلام. إلى درجة ان احد الاساتذة بجامعة القاهرة قال لنا وقت كنت منتسبا لهذه الجامعة: " إن هذه الكلية نسميها كلية الكلام. لأن الطالب لما يلتحق بها لا يتعلم شيئا سوى الكلام. ولما يتخرج ويشتغل فيها، تظل وظيفته هى الكلام. ويظل يتكلم ويتكلم إلى ان يموت ". وتجد عندنا بعض الرسائل الجامعية كلها كلام في كلام والشعر كلام والقصة كلام والنقد كلام. الكل كلام في كلام. صدق الاستاذ في هذا الكلام ويا سلام عليه من كلام !.

(٤٩)

يأتينا الشهر المبارك رمضان في هذه الايام. يأتيني شخصيا في هذا الجو الحار والنهار الطويل والاستعداد للامتحان والغربة. مجيئ رمضان أتاح لي أن أسترجع بعض صور الذكريات المغربية إذ نخرج بعد الافطار حيث تمتلئ الشوارع بالناس عائلات وأفراد. أهلا برمضان لأنه يشرعني نحو بحر الذكرى. في رمضان القاهري لا تتأثر الحياة النهارية كثيرا. ومع ذلك فعلى مستوى المأكولات هناك تغيير.

بعض المحلات تتحول إلى بيع مختلف الحلويات التي يزداد استهلاكها. وقد جلبت الحكومة كثيرا من السلع الغذائية لتغطية

زيادة الاستهلاك. لماذا يرتبط رمضان دائما بالزيادة في الاستهلاك وهو شهر الصيام ؟

ليس في نهار رمضان تغيير كبير. فأغلب المطاعم الصغيرة والكبيرة، الشعبية والراقية، تظل فاتحة أبوابها. الذين يبيعون المشروبات الغازية ومختلف أنواع العصير، كعصير التمر الهندي والبرتقال والليمون والقصب،يستمرون أيضاً في بيع عصيرهم.

قد يكون هذا راجعا للتسامح الديني الذي ينادي به الجميع، إذ يذكر أن بمصر نسبة من المسيحيين تقدر بعشرة في المائة .

أما ليل رمضان القاهري فلن أصفه بأكثر من أنه في غاية الجمال. مما شجعني على قطع المسافة ما بين السيدة زينب والحسين على قدي مرورا بجامع عمرو وحي الغورية. في الليل يخرج الكبار والصغار في أحسن زينة وتمتلئ المقاهي عن آخرها ويستهلك الناس كثيرا من الكشري والفول المدمس والمشروبات الغازية. أما منطقة الحسين حيث مقاهي خان الخليلي المشهورة فتكتظ بالمتجولين لدرجة تجد صعوبة في أن تصل إلى غايتك.

ويستغل بعض اللصوص هذا الازدحام فيفتعلون عراكا ينشلون خلاله ما في جيوب الناس. لكن بعض أفراد الأمن يكونون غالبا هناك. في خان الخليلي نفسه يسهر الناس في المقاهي لغاية السحور وتقدم بعض الاجواق الشعبية أغانيها. الجميل في ليل رمضان أيضاً

هـو معـرض الكتـاب المصـري الـذي يقـام فـي مكـان بـين الحسـين والدراسة.

وبجانب المعرض عدة سرايات تقدم فيها سهرات فنية يحييها بعض المطربين المصريين أغلبهم من مطربي الكاسيت والأفراح مثل فاطمة عيد وسمير الاسكندراني. وزارة الثقافة تقوم هى الأخرى بدور إيجابي حيث تنظم في سراى خاص بها في نفس المكان عروضا مسرحية تقدمها أيضاً في قصر الغورية وفي الأقاليم. وزارة الثقافة في مصر رغم الانتقادات التي توجه لها، تقوم بدور إيجابي ولا أدل على ذلك من رعايتها لكثير من الجمعيات الثقافية والمسرحية. يكفي أن نذكر أن على رأسها استاذا كبيرا هو الدكتور أحمد هيكل.

أهلا إذن بك وبي في زمن رمضان وبزمن رمضان في زمن القاهرة وبزمن القاهرة في زمن هذا الزمن.

(٥٠)

هذا الشهر من الأشهر المهمة بالنسبة لشباب القاهرة. فهو شهر الامتحانات. وكل الناس يتحدث عن المذاكرة والامتحانات يكاد الطلبة والتلاميذ لا يستعدون للامتحانات إلا ي هذا الشهر حيث يتجدد الخوف من اسم هو امتحان الثانوية العامة أي البكالوريا عندنا. فالمرحلة الجامعية تتوقف على المجموع العام الذي يحصل

عليه الطالب. وهو الذي يوجهه للفلسفة أو العربية أو الانجليزية أو التجارة أو الطب أو الهندسة .. إلخ.

الغش في الامتحانات وتسرب الاسئلة أور طبيعية وعقوبتها كبيرة.

طريقة الامتحانات أصبحت روتينية تقليدية. هل أصبحت كذلك أم أنها تقليدية منذ زمن ؟ إنها على كل حال بعيدة كل البعد عن تقويم قدرة الذكاء والتحليل عند الطالب.

تطرح عدة أسئلة اختيارية والطالب يحفظ عن ظهر قلب لأن السؤال يكون في المقرر. وغالبا ما يكون مباشرا. مثلا يتضمن استذكار فصل من كتاب أو مطبوع قرره الاستاذ خلال السنة.

الطالب الممتاز هو الذي " يذاكر جامد ". لاحظت أن مقررات كلية الحقوق كالتي عندنا طويلة جدا. غير أني لن أمنع تعجبي من الظروف المكانية التي تمر فيها الامتحانات. فبسبب ضيق القاعات وقتها يمتحن الطلبة في كل ردهات الكليات. لا تسلم سوى السلالم. الاكثر مأساوية هؤلاء الذين يمتحنون داخل الخيام الكبيرة المنصوبة خصيصا لهذه الغاية حيث ضغط الحرارة والاسئلة معا. يمكن للطلبة طلب مشروب بارد أو شاي ساخن خلال فترة الامتحان. الذين يغشون يكتبون الدروس في أوراق يصورونها ويصغرونها عدة مرات لتتسع للكثير في القليل من الورق. كما هى عادة الطلبات منهن من يكتبن على أجزائهن السفلى. من ضبط يمنع

من اجتياز الامتحان. وربما لعدة سنوات. من فاز فاز بالغنيمة. فالكل يبحث عن النجاح ليفرح بنجاحه مثلما غنى عبد الحليم حافظ.

(٥١)

واجهنا خلال نصف السنة التى مرت علينا هنا، ظروفا إدارية صعبة كادت تعصف بنا. وكنا نلتجئ دائما للسفارة المغربية لطلب المساعدة. غير أن بعض هذه الظروف كانت خارج إدارة السفارة. فقد تأخرت عنا المنح لمدة طويلة حتى بقينا على الحديدة كما يقول المصريون. قبل ذلك انتظرونا موافقة أمن الدولة المصري على وجودنا. كنا نخشى أن نرفض مما يعني عدم إمكانية متابعتنا للدراسة. بعد ذلك ظللنا دفع الرسوم الجامعية. وهى الرسوم المفروضة على كل الطلبة الاجانب. وفي هذا الاسبوع عشنا مشكلة أخرى تتمثل في أنه من الواجب أن نحول ١٥٠ دولارا كل شهر للحصول على الاقامة. مع العلم أننا لا نتقاضى هذا المبلغ، والقرار يقضي بضرورة تحويل هذا المبلغ في البنك مما يعني ضياع نصف المبلغ تقريبا بخلاف السوق الحرة. التحويل التحويل. دائما التحويل. حتى تذكرة السفر لا يمكن أن نحصل عليها بالجنيه المصري، إذ لابد من الدولار.

لا يسعني سوى أن أغبط الطلبة العرب الآخرين وأتمنى لو كانت لنا نفس الامتيازات التي منحتها لهم دولهم. هل أذكر الفروق

التي بيننا ؟ هل أذكر أن المنحة التي نتقاضاها خلال ثلاثة أشهر لا تعادل منحة شهر عند أي طالب عربي آخر من دولة غير بترولية مثلا؟ هل أذكر أن من حق ذلك الطالب تذكرة سفر ذهابا وإيابا كل سنة. وأن من حقه التطبيب والتعويض عن البحث وطبعه ؟ كيف إذن نحول هذا المبلغ من هذه المنحة الهزلية عفوا الهزيلة. ولأن المصريين طيبون معنا، فقد تفهموا صيغة إدارية قدمناها لهم ومنحونا إقامة لمدة سنة كاملة. لا داعي لذكر تفصيلات هذه الصيغة. فهناك صيغة أكثر تعقيدا منها، هى صيغة الحياة.

(٥٢)

وأحلم كل يوم أني أعود وأخرج من هذا الزمن الصعب. احلم أني أفتح عيني فأجد كل الذين أجببتهم أمامي. أعانقهم ويعانقوني. أكلمهم ويكلمونني. يسألونني عن هذا العمر الذي خلفته ورائي. شهور تمضي. الشهور كالأيام تمضي سريعة جارة معها لحظات موغلة في تشردي. قد تحفل هذه اللحظات بالمغامرة وسعادتها. ولكنها كالبحر عميقة وساحرة وتجرف ضاربة الغريق مع الصخر. قد تكون الصدمات مفيدة لأنها تقوى شخصية الانسان وتعلمه كيف يتحمل قساوة الظروف حين يواجه وحده رعونتها وشماتتها.

أحلم كل يوم فتبدو مدينتي أمام عيني داخلا إليها من كل الجهات مقبلا تربتها بدمع فرحة اللقاء. تبدو مدينتي وكأن لا مدينة

إلا هى. بسيطة وصغيرة وجميلة رغم ظروف الحياة الصعبة. يظهر لي الناس فيها سعداء رغم مشاكلهم. يكفي الواحد منهم أنه يعود ليجد من يريده.

تسحب الاشجار ظلالها والارض ترابها فأدخل أسواري وأحارب ألواني. فمن يوقف الرياح والعواصف في قلبي ؟ ولم لا تصبح الارض تفاحة وليس بيننا برزخ ؟

(٥٣)

هذه ليلة أخرى في صيف القاهرة .. تسير بي الايام هنا وقريبا أكمل سنة. انزويت كعادتي في الفراش لأسجل انطباعا لهذه الليلة. تمر علّى أحيانا أيام دون أن أكتب. ربما أسابيع. وفي بعض الأوقات تتتابع هذه الكتابات يوميا. ذلك متوقف على رغبة الكتابة. ربما تلاحظ أن كلامي تطغى عليه مسحة سوداوية. لماذا لا أكاد أذكر إلا التعاسة. تعاستي وتعاسة من أعيش بينهم ؟ قد يكون الجواب هو أني مازلت منذ وصلت للقاهرة لم أحس بالأمان.

فبعد كل المشاكل الادارية التي مرت، ها أنا مازلت لم أحقق شيئا مما جئت من أجله. مازلت لم أجتز الامتحان لأخرج منه ناجحا ضامنا ورقة استمرار لمدة ثلاثة سنوات أخرى أهيئ خلالها أطروحتي الجامعية. لابد من النجاح خلال السنة الاولى كما تعرف كشرط لتوافق الوزارة في بلدي على استمرار منحتي.

إذا ذكرنا المنحة، أذكر لك عنها أني توصلت بالمنحة الرابعة. وهى آخر منحة في هذه السنة التي انتهت. يبقى أن تعرف أن علّى أن أنفق من هذه المنحة لمدة لا تقل عن خمسة أشهر. وهى المدة التي أكون اجتزت فيها الامتحان وبعثت للوزارة عندنا بشهادة النجاح ووافقت بناء على ذلك، على تجديد منحتي. يبقى أن تعرف مرة ثانية أني قد أفشل في الامتحان مما يحتم على العودة للمغرب خاسرا. المشكلة أنه لن يكون عندي مليم واحد أصل به من القاهرة للمطار ناهيك عن كوني لا أملك تذكرة العودة للمغرب.

ربما يفسر هذا القلق الذي أعيشه سبب كوني أرى القاهرة بهذه العين. على أني لا أتمني أن تحمل كلامي على أنه مزيف. فلقد جعلتني هذه الظروف أعرف كثيرا عن الحياة البئيسة في القاهرة لاني ارتدتها وعاينتها بل وجدت ألفة معها بحكم كوني عشت ظروفا مشابهة في المغرب. ومع ذلك فحكاياتي لا يجب أن تغطي على مفاتن القاهرة. مفاتن الآثار السياحية الفرعونية والإسلامية. مفاتن النيل والكورنش والكازينوهات المشرفة عليه والتي تمنحك في الليل فجوة للتأمل واستعادة النشاط. مفاتن خاصة باكتشاف اللغة والعادات وبساطة وطيبوبة الناس الشعبيين.

لم أر الحياة في القاهرة كما يراها سائح أوروبي من خلف زجاج الليموزين والحافلات السياحية المكيفة أو من أعالي شرفات الماريوت والشيراتون. ولا كما يراها سائح عربي. ولا حتى كما يراها

مواطن لا يبصر ما في الشارع إلا من داخل طرازات المرسيدس. رأيت القاهرة كما يراها موظف غلبان أو صبي عربيات النفر أو ماسح أحذية في إحدى مقاهي وسط البلد أو بائع الذرة المشوية في الازبكية. رأيتها كذلك. فلا بأس إذن إن أعطيت عنها صورة خاطئة وإن كانت على حال، أقل خطأ من تلك التي كونها عنها من خلال الشاشة.

(٥٤)

أحاول أن أستغل بعض الوقت للترويح عن النفس بالسفر خارج القاهرة.

هذا شأني مع الجولة التي قمت بها اليوم لمنطقة القناطر. وهى منطقة سياحية متميزة. مكونها السياحي هو النيل والخضرة. هنا مجموعة من القناطر على النيل مشيدة بشكل هندسي دقيق. وكانت تستعمل لحصر مياه النيل قصد رفع منسوب مياهه. لكنها فقدت أهميتها الوظيفية ببناء السد العالي.

ترجع هذه القناطر فيما اعتقد لعهد محمد علي أو بعده بقليل. ولم تفقد جمالها لانها جاءت بالضبط في المنطقة التي يتفرع فيها النيل إلى رافدين. أي نقطة بدء الدلتا إلى شمال القاهرة بأزيد من ٢٠ كيلو مترا.

تركت كل جمال هذه القناطر وتوغلت في الفدا دين وبين بساتين البرتقال بمحاذاة إحدى ترع النيل. شربت كأسا من الشاي في إحدى المقاهي الريفية الشعبية. أحسست أني استعدت حياتي وتزودت لمواجهة القاهرة. سأشارك الاصدقاء رحلة نقوم بها لاحدى المدن المصرية.

(٥٥)

قضينا فعلا أربعة أيام خارج القاهرة. يومين في الاسماعيلية ويومين في بورسعيد. الايام الاربعة كانت من أحلى أيامي في مصر حتى الآن لانها جاءت في ظروف التعب والارهاق وبعد طول مدة من الحبس الاضطراري بين شوارع القاهرة.

لم تخل الرحلة من بعض الاتعاب. أذكر منها تعب القطار الذي نقلنا من القاهرة للاسماعيلية مستغرقا عدة ساعات بدل ساعة ونصف. والخطأ يعود لسوء تقديرنا. فقد خدعنا الاسم حين قالوا لنا يوجد قطار درجة ثانية سياحي. ثم اكتشفنا أنه القشاش. ذلك الذي يقف في كل محطة مثل الترام الموجود بالقاهرة. وداخل هذا القطار وجدنا أماكننا بصعوبة بين مسافرين معلقين حيث أماكن الامتعة، ونساء محتضنات سلالا فيها بط ينظر إلينا بفضول. وجدت ألفة مع هذا الوضع. وكنت على وشك أن يكون سفري في هذا القطار ممتعا

لولا حرارة الشمس القوية ولفحها وهواؤها الحار الذي كان يضرب وجوهنا من النوافذ المكسرة والابواب التي من غير أبواب.

كان بوسعنا أن نركب مواصلات أخرى أحسن، تاكسيات مثلا، حافلات أنيقة، قطارات مكيفة، لولا سوء تقديرنا. فالمواصلات رخيصة في مصر. أما القشاش فيمكن أن تنتقل فيه من مدينة لمدينة بثمن لا يتجاوز ثمن تذكرة في إحدى حافلات الخواص في الرباط.

في الاسماعيلية لم نجد أسرة فارغة في الفنادق المتوسطة مما اضطرنا لقضاء ليلتنا في لوكندة سيئة أحوالها متسخة أغطيتها. لحسن الحظ كنت نصحت كافة الاصدقاء بأن يحملوا معهم بعض الاغطية الخفيفة تحسبا لظروف كهذه، صاحب اللوكندة رحب بنا وحرص على أن يبقي أمتعتنا عنده شخصيا حفاظا عليها. كما نصحنا بخزن أحذيتنا عند النوم لكون المكان الذي نمنا فيه ممرا يوصل لدورة المياه.

أما رواد اللوكندة فأكثرهم من المجندين في الخدمة العسكرية والعابرين القادمين من النواحي. ومع ذلك فقد كنا محظوظين لأننا لم نقض ليلتنا في الشارع. وقد نقلنا صاحب اللوكندة في اليوم الثاني لغرفة في الطابق الاول وجدنا فيها استقلالنا رغم أن شخصا كان نائما في البلكونة. تركناه في حاله كما أوصانا الرجل.

كل هذا يعود لجهلنا بأحوال البلدة ففي بورسعيد مثلا لم نجد مشكلة في السكن. لان في هذه المدينة فنادق كثيرة متوسطة نظيفة وهادئة وأثمنتها مناسبة جدا بخلاف مثيلاتها في القاهرة.

ميزة المدينتين أنهما هادئتان وجميلتان. ولقد فتنتني بصفة خاصة شواطئ الاسماعيلية تقع على شاطئ بحيرة التمساح. وهى بحيرة كبيرة متصلة بالبحر الاحمر وبالمتوسط عبر قناة السويس ويصب فيها أحد فروع النيل. هذا يتيح لك أن تلامس عدة بحار في وقت واحد. يحج للاسماعيلية عدد كبير من المصريين مما يجعلك لا تجد مكانا في الشواطئ التابعة في نفس الوقت لبعض الاندية أو للخواص. أما بالنسبة لنا فخلال اليومين استحممنا في الخاص والعام وتمتعنا بالمياه الدافئة حيث لا توجد أية أمواج. بعض هذه الشواطئ غير مسموح فيه بالاختلاط. أما حيث الاختلاط فترى النساء بدون مايوهات. لسن عرايا ولكن يسبحن بأقمصتهن وعباءاتهن التي تلتصق بالجسد فتظهر ما يخفي. كما قطعنا قناة السويس عبر المعدية إلى سيناء وصعدنا إلى خط برليف حيث النصب التذكاري.

ومن فوق كانت صحاري سيناء تمتد أمام نظري. وكانت الرمال الساخنة التاريخية في وصل مع ماء البحر. إذن في الاسماعيلية تكون الضفة الغربية كلها خضراء. وبينهما برزخ البحر. فهما لا يلتقيان إلا من خلال العين. من يكتشف إذن هذا الجمال الساحر؟.

(٥٦)

بعد أن تابعت عبر التليفزيون مقابلة في كرة القدم بين الزمالك والاهلي السوداني فهى في مقهى شعبي بميدان الدقي، رجعت مباشرة للشقة وأعددت العشاء من كفتة وطماطم تنفيذا لدوري لهذه الليلة. وتحادثنا جميعا ونحن نتناول العشاء. بعد ذلك ارتمى كل منا على سريره. نحن ثلاثة في غرفة واسعة من ثلاثة أسرة ورابعنا في غرفة منفردة. واحد من الذين معي يختمر في نومه والآخر يحضر مادة الترجمة لامتحان الغد وأنا مختبئ في الغطاء مستلق على بطني أخط لك هذه الأسطر. لم يكن يخطر ببالي أبداً أن أكون في بلاد اسمها مصر وفي مدينة اسمها القاهرة وفي شارع اسمه عكاشة. في مثل هذا الوقت من السنة الماضية كنت في مرحلة الاستعداد لمغادرة الجامعة بعد آخر سنة لي فيها. وحتى ذلك الوقت بالذات ما تخليت أبدا كل هذه الجبال من الغربة. هاهى سيجارة بعد أخرى وانتظار بعد آخر ومصير بعد مصير.

ملامح وجهي أصبحت تأتيها حالات غريبة وخاصة حين أشعر بالتعب. وهذا اليوم اكتشفت شعرة بيضاء في لحيتي. كل هذا وأنا في منتصف العقد الثالث من عمري. أعني في زهرة شبابي يا شبابي. إنها مجرد حالات لا أصدقها. العمر يجري ولا يتحقق. منذ صبانا عمرنا يجري، وحلمنا يطاردنا ولا يتحقق. حلمنا إذا أشفق وعطف

ومال أدلى لنا أهدأ به لنتعلق. تعلق أنت وتعلقي أنت. تعالوا نتعلق. يا أحلام يا وردية يا بنفسجية يا فوق البنفسجية يا تحت الحمراء. العمر يمضي ولا يتحقق.

فسبحان من أعطى فأوفى. وسبحان مبدل الأحوال. ونحن دائما نحن. وعالمنا لا شبيه له عندنا ولا يخطر لنا على بال ولا يدور عندنا في فكر فسبحان من يطعم النملة في عمق الصخرة والدودة في الثمرة.

(٥٧)

القاهرة مشهورة بكثرة الكلاب والقطط. في كل زقاق مجموعة منها. بل حتى في الشوارع الكبيرة. وبين الكلاب والقطط ألفة. ولم يحدث أن رأيت بينها مهارشة أو جدال. في الليل بالذات تكثر وتقطع على المارة الازقة الضيقة. كلاب من مختلف الانواع. لكن الغالب عليها كلاب شبيهة بكلاب بوادينا في المغرب. من عادات الكلاب هنا أنها تفضل النوم على أسقف السيارات دون حرج أو استئذان. مرة واحدة رأيت كلبة وكابا في التصاق جنسي وكان ذلك بالذات وسط جامعة القاهرة بالتحديد عند أدراج باب كلية الآداب. لم يمسها أحد بأذى. مر بهما الطلبة والطالبات والاساتذة ولم ينهرهما أحد. فيا له من رفق بالحيوان واحترام لمشاعره. عندنا في

المغرب يقنصون الكلاب مثل الطرائد بالرصاص ويجمعونها في شاحنات ليلقوها بعيدا في المزابل الكبرى.

(٥٨)

دائما تتبعنا المشاكل. فبعد أن حلت مشكلة موافقة الأمن المصري على إقامتنا بمصر والتي أرقتنا شهرين، وحلت مشكلة تأخر المنحة والتي أرقتنا أزيد من ربع السنة، ظهر مشكل جديد يتكثل في إصدار السلطات المصرية لقانون لن توافق بمقتضاه على تمديد إقامتنا لمدة سنة جديدة إلا بعد تحويل المنحة بالبنك الرسمي مما سيؤدي لضياع نصف المنحة. وسيكون المستفيد هو البنوك المركزية التي لا تنصرف الاستمرار في الحياة داخل مصر، فالمنحة في وضعها الحالي غير كافية لتغطية نفقات الايجار والعيش والكتب والتنقل والواجبات الادارية فكيف سيكون الاثر بعد القانون المفاجئ. هل أعود للمغرب ؟ أم أستمر هنا أراجع اشتغالات مقامي. إني أتحدث عن وقائعي وصيرورات مردويتي يا هؤلاء الناس. يا قلوب الرحمة يا أهل الضمان يا رجال البلاد يا خنافس المزابل الاثرية يا وسخ أنياب الغول يا كل من يمشي على أربع أو يزحف أو يطير أو يضاجع فروج التيفوس. إني اتحدث عن وقائعي.

(٥٩)

قطعت خطوات هامة في البحث الذي أعده لاستكمال المواد التي يجب أن أنجح فيها لأحصل على شهادة السنة التمهيدية المخولة لتسجيل رسالة الماجستير. لقد كان من حسن حظي أني حصلت على الموافقة بالتسجيل في جامعة عين شمس وهى الجامعة العصرية المتفتحة. ولكن من سوء حظي أن لا أعرف مصيري حتى الآن. لأن بهذه الجامعة دورة واحدة في اكتوبر المقبل مما يعني أني سأقضي سنة بكاملها قبل أن أجتاز الامتحان. يضاف إلى ذلك وجوب انجاز بحث لا بأس بطوله. وهو البحث الذي أنا بصدده أبحث. أبحث في البحث. وأبحث عن البحث ولا من عني يبحث.

(٦٠)

إني منضبط دائما و" قشابتي واسعة "[١] ويدي طويلة والامور أنا تاركها تسير كما تشاء. ذلك مبدئي وعليه أعول. والذي أطلب أن تبعث اللهم من يسلم على من طلوع المغرب إلى طلوع الشمس، ومن يسلم على ثالثة إلى يوم الدنيا حيث تضحك علينا وتعطينا من كل متخير الخلق والابداع. ولا تجلعنا نوعا من أنواعك الهجينة وهيمن في النسق الصوتي المكون لرغبتنا في الحياة وابعث أنوارك في الصور التي نخلقها عن حبيبتنا أيها الحبيب.

---

[١] القشابة: العباية في العامية المغربية. والعبارة تعني سعة الخاطر.

ماذا بوسعنا أن نعمل وسط هذا المجتمع. كيف للزاحد أن يعطي إذا لم يمكن من أن يمارس حقه في الحب كإنسان أو على الاقل كصنف من الحيوان. إذا لم تحترم خاصيته الحيوانية فكيف ستحترم خصائصه الإنسانية ؟ نتعرض لأثر التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. لو كنا أبناء البلد لكان لنا لقاحنا البلدي لمواجهة الازمة. وبما أننا وضعنا هنا فقد ضعنا. لقاحنا الوحيد هو الدولار في الجيب. ولما كنا لا نتوفر على هذا اللقاح روعتنا قبضة الحديد وبالت علّى شخصيا ورسميا القطط التي تموء في آخر الليل حين اقتحمت غرفتي ووجدتني أعد النفقات من غير موارد والجبايات واجبة الدفع من غير سجلات.

وحين تحبس عنا حكومتنا إمداداتها لا تدرك أنها بذلك تنسانا. فالادارة هنا لا تصدق سوى النسخ المصورة من التحويلات البنكية. أما العاطفة والأخوة فلا نجدها إلا فيمن يكتوي بنار التحويل. صحيح أن حكومتنا تغطي الرسوم الدراسية الأساسية. لكن لماذا تدعنا نعرق وننشف حين تتأخر هذه الرسوم. ثم من يدفع الرسوم الدراسية الاضافية ورسوم الاقامة وتذكرة السفر وباقي الرسوم الصغيرة والكبيرة ؟ علما بأن منحة المغربي هى أهزل منحة تدفعها حكومة لطلبة الشعب. إننا بكل اختصار محرومون من كل رعاية اجتماعية ولا يتذكروننا إلا إذا حلت مناسبة وطنية. الواحد في الحقيقة لا ينكر أن بالسفارة أشخاصا طيبين لمسنا في أكثر من

مناسبة رغبتهم وسعيهم لحل بعض المشاكل الادارية للطلبة. لكن ما العمل إذا كانت القضية " منغوزة " من هناك.

(٦١)

مازلنا بين أمل ويأس. وردنا خبر غير مؤكد يقول بأن قضية التحويل قد تحل وأن في المشكل صيغة فقط وأن الصيغة المطلوبة هى في صورة تلك التي تقدمها سفارة موريطانيا لطلبتها. وعلى أثر وجودنا الاخير بالسفارة للسؤال عن مصيرنا اتفقنا فيما بيننا على أن نلتقي بنادي المغرب العربي. وقد وقع ذلك بالفعل حيث تمت صياغة بعض المطالب سنتقدم بها للسفارة. منها النظر في قانون التحويل الجديد والحصول على تذاكر السفر بالعملة المصرية. ومنها الضمان الصحي والزيادة في المنحة ودفع رسوم الاقامة.

(٦٢)

تركت الأصدقاء هناك بشارع عكاشة وانتقلت إلى شارع مقابل في نفس الحي. وقد حل الله لي مشكلة كانت ستكون كارثة. فزملائي في الشقة السابقة قرروا جميعا الرجوع للمغرب في الصيف والتخلي عن الشقة لاصحابها في انتظار سكن آخر بعد عودتهم. وتصادف قرارهم هذا مع معرفتي بطالب مغربي يعيش وحيدا في غرفة فوق السطوح يؤجرها بثمن مناسب؛ ٤٠ جنيها. وكان في الوقت

نفسه يبحث عمن يشغل غرفته في غيابه أثناء الصيف. على أن يقوم من يعوضه بدفع إيجار الغرفة خلال هذه المدة. فقلت له: أنا يا أخي، أنا أدفع هذا الايجار فلا تبحث عن آخر وتتركني مرميا في صيف القاهرة. فقال لي: تعالى أنت عمن أبحث. هذه حاجياتي في ركن من الغرفة حافظ عليها ولك باقي الغرفة افعل فيه ما تشاء. وكان ما كان. ودعت زملائي السابقين رغم أنهم سيقضون مدة قليلة قبل سفرهم والتحقت بهذه الغرفة فوق السطوح. اذن حل الله مشكلة موقوته في انتظار عودة صاحب الغربة وعودة الزملاء لنلتحق ببعضنا في شقة جديدة.

(٦٣)

رجل من هاواي تعرفت عليه هذا اليوم بحديقة الأورمان. وهى حديقة ضمت أشجارا جلبت من مختلف مناطق مناطق العالم. رجل تجاوز الخامسة والاربعين يعلق في عنقه آلة تصوير. يلبس شورت وقميصا خفيفا سألني عن إحدى فصائل النخل وهل هى موجودة في مصر. فقلت ربما تكون وان لم أرها شخصيا. الرجل خفيف الظل يكثر من الضحك. والحركات ويبدي إعجابه بالمصريين وطال حديثنا متجولين في الحديقة. ومن خلال حديثه وحركاته عرفت " أنها فيه " وبخاصة لما سألني هل أسكن وحدي ودعاني لنشرب كأسا في الفندق الذي ينزل فيه. وقد اتفقنا أن يكون لقاؤنا غدا على الساعة الثالثة أمام بوابة حديقة الأورمان. أردت بذلك أن أتخلص

منه لاني لن أكون في الموعد. هو أنا ناقص مشاكل ؟ على حد تعبير المصريين.

(٦٤)

القاهرة ليست مثل الدار البيضاء. إنها أكبر ثلاث مرات. إنها رهيبة ومخيفة. ومن لا يملك فيها توازنه ينهار. ولكي لا ينهار عليه أن يعيد خلق نفسه من عجائن لا يصيبها بلل الرداءة الزمنية. عليه أن يتكيف ويتأقلم ويتوافق ويتوازى ويتضافر ويتمازج قهرا وغضباً مع صخب هذه المدينة وقيامتها وساعتها. لكن في مقابل ذلك وفي حالة النجاح في ما ذكرناه، بوسع الإنسان أن يتمكن من رغبته في الدراسة. الدراسة ممكنة والكتب متوفرة في المكتبات والخزانات العامة. غير أنه من الغريب أن بعض الكتب الرائجة عندنا في المغرب غير موجودة هنا نهائيا لا في البيع ولا في الخزانات. إن الدراسة ها هى. والخزانات هاهى. وأنا ها هو. والجو النفسي أين هو ؟ في القاهرة من كل فن طرف ومن كل نوع أزواج. على سبيل المثال نجد في سوق الخضر بالدقي جل أنواع الخضر التي عهدناها في المغرب بما فيها البطيخ والنعناع والقزبر والبقدونس. طائر الدوري بدوره له نفس العادات وإن كان هنا أكثر تحديا.

(٦٥)

في القاهرة مختلف درجات السينما. من تلك التي تعرض فيلما واحدا إلى تلك التي تعرض ثلاثة أفلام. والجمهور المصري الشبعي يفضل الأفلام المصرية وأفلام الرب والعنف وأفلام البطولة الخارقة. كما أنه يتفاعل مع الفيلم كأنه يعيش أحداث القصة.

أجمل ما في القاهرة ليلها. فبعد نهار متعب بزحام المواصلات ولغط منبهات السيارات وبراكين كازوال الحافلات، تنقلك جولة على الكورنيش أو فوق كوبري الجامعة إلى سكينة باهرة تتوغل في خبايا الأعصاب.

لنا زملاء من المصريين هنا وهناك. في الجامعة أو في السوق. ولم يظهروا لنا حتى الآن سوى أنهم مثال حسن للمعاملة الطيبة. أنا شخصيا ليست لي مع المصريين أي مشكلة. بل أجد تعاطفا كبيرا معهم وخاصة مع البسطاء منهم إحساسا مني أني أقاسمهم نفس الحياة القاسية. مشكلتي هى في وجودي هنا من غير أن تمكنني حكومتي من كل ما يوفر لي ظروفا أحسن. ولنا أيضا علاقات طيبة مع الطلبة الجزائريين الذين هم أحسن منا ماديا. إذ تتعدى منحتهم ثلاث مرات منحتنا. لكنهم لا يستفيدون منها. أو لا يستفيد منها بعضهم على الاقل. فترى الواحد منهم يستأجر شقة بمفرده أو يبعث بالمنحة لاهله ليشتري جَرَّاراً. ورغم سوء العلاقات

السياسية بين حكومتينا. فنحن كطلبة مغاربة وجزائرين سمن على عسل. لعن الله السياسات الحكومية الرديئة.

(٦٦)

أحدثك هذا اليوم عن موضوع لا يخلو من حرج هنا في مصر. وهو هذا التشدد الظاهر في العلاقة بين الرجل والمرأة. تشدد قد يصل إلى الطلاق لمجرد أن يعرف الزوج مثلا أن زوجته سبق لها في مراهقتها أن بعث رسالة إلى شخص آخر. ويظهر لي أن خلف الوئام الظاهري مشاكل مسكوت عنها قد ترجع إلى عدم معاشرة الطرفين لبعضهم بالقدر الكافي قبل الزواج بحيث ينطفئ الحب بمجرد أن ينهي الزوج حصار السنوات العجاف السابقة في حياته.

وهناك سبب يرجع لعادة سيئة هى تختين النساء وذلك بقطع الجزء الاكثر حساسية في العضو التناسلي للمرأة. وهو الامر المخالف لإرادة الله الذي صور الإنسان على أحسن صورة وقدره أحسن تقدير فمنحه سبل العيش وجعل من ضمن ذلك عضوا للمرأة تحس بواسطته أنها آدمية. عملية الختان هذه يترتب عنها أمران: إما أن المرأة ستظل جاهلة باللذة الجنسية لختانها من جهة ولجهل الزوج وتجاهله لرغباتها من جهة أخرى. إلا في الحالات التي يوجد ما يخالف زعمنا وهذا شئ موجود بالفعل. وإما أن المرأة ستطلب مزيدا من الممارسة للوصول للذة مما قد ينهك الزوج مع المدة،

ويعجزه عن تلبية رغبتها. أظن أن هذه العلاقات المتشددة والقيم التي يرفعها الناس مع جهلهم بعواقبها لها مخلفات وآثار سلبية. غير أن هناك ظاهرة حسنة ولو على حساب الرغبة البيولوجية. هى ركون الفتاة بشكل عام إلى التعفف قبل مرحلة الزواج وركون نسبة هامة من الزوجات إلى الاهتمام بتربية الاولاد ونسيان كل ما يسمى جنسا.

أستثني من كلامي بعض علاقات الحب التي قد يتجرأ فيها الطرفان على ممارسة الجنس بتحفظ شديد. كما أستثني ظاهرة البلغاء التي تكونها فتيات صغيرات غرر بهن أو مطلقات أو شغلات بيوت أو فقيرات. وهى ظاهرة تحدث بشكل عام تحت تأثير ظروف اجتماعية قاهرة. وتبحث الباغية عن نفسها بشكل حر ومنفرد ومتستر جدا أو تنظم لتجار الرقيق الابيض الذين يبيعون النساء للأجانب. وقد ضبطت السلطات عدة شبكات من هذا النوع مثلما سبق أن حدث ويحدث عندنا.

هذا تحليل قد يبدو متحاملا وخاطئا. فلا ننسى أنه يأتي تحت ظروف خاصة وربما بسبب التجارب الفاشلة وتحت الاحساس برغبة وعوائق أهمها الشروط الخانقة التي عشتها حتى الآن. أقصد المشاكل الإدارية وظروف الغربة وضغط المقرر الدراسي والخوف من المستقبل وتجنب توطيد العلاقات مع الناس. اللهم إلا المناقشات وتبادل الرأي الذي تم بيني وبين عدد من المصريين والمصريات داخل رحاب الجامعة وخارجها. ولا أكتمك أن نوع العلاقة العاطفية

العفيفة التي تميل البنت المصرية إلى فرضها جعلني أتبرم من استمرار أي علاقة. لأني أحس – تحت ضغط الظروف المذكورة – أني لا أجد متنفسا للمضي بالعلاقة كما أريد. وبما يكون في ذلك خَيْر لِي ومنفعة في هذه الظروف. وإلا أفلست ونسيت المقرر ووقعت في ورطة.

(٦٧)

إذ أذكر السكن الرديئ في القاهرة، أذكر تلقائيا مأوى مثل مدينة المقابر وفوق السطوح والبدروم. ففي مدينة المقابر وحدها عدة ملايين من السكان. وسميت بهذا الاسم لتجاور الاحياء والاموات فيها. فقد استغلت هذه الملايين من الناس بعض الفراغات في المقابر لتقيم فيها أحياء كاملة لا يتوفر فيها أي شرط لحياة الانسان. في هذه المدينة التي هى مدينة المقابر، بيوت للأموات أحسن من تلك التي للأحياء. فالعادة جارية هنا بأن تخصص العائلات أو بعضها بيوتا مستقلة لدفن موتاها. هذا الوضع المرزي تعرفه أحياء أخرى مثل بولاق الدكرور والعمرانية والوراق وشبرا وغيرها. في هذه الاحياء الشوارع والازقة مكتظة بالباعة المتجولين. باعة البطيخ والبرتقال والليمون .. وحيث النساء السمينات ذوات اللباس الاسود الطويل يعرضن على مفروشات البلاستيك خضرهن كالبطاطس والطماطم والخيار والجزر والخص. وفي هذه الأحياء

عدد لا يحصى من المارة الراجلين من نساء ورجال وتلاميذ وفلاحين جاءوا من الارياف وراكبين على عجلات نارية وعادية وعلى الحمير وعربات الحمير والخيول.

أما البدرون وفوق السطوح فقمة وقاعدة المنازل في العمارات الحديثة تسكن عائلات في البدروم وهو ما تحت العمارة. وفي البدروم تقتل الرطوبة العظام. أما فوق السطوح في الحياء القديمة والشعبية فحيث يرمي السكان بما فضل من مقتنياتهم. ومنهم من يستغله لتربية الدواجن. والذي يسكن من بني الإنسان في هذا المكان فسيكون معرضا دائما لأن تطير غرفته إذا جاءت عاصفة أو كارثة وتضربه الشمس لأن الجدران والاسقف متأكلة وغالبها من القش والقصدير والخشب.

كل هذا يحدث بسبب أزمة السكن في القاهرة. ولعل للمسؤلين عذرهم أمام هذا التناسل الذي لا يتوقف. حيث فشلت كل محاولات تنظيم الاسرة وتحديد النسل وأمام الهجرة المتزايدة لأهالي الأرياف. والذين ينتقدون هذا الوضع يرون أن الحل هو نقل العاصمة خارج القاهرة أو غزو الصحراء وتعميرها. كان الله في عون المسؤولين.

لكن القاهرة قاهرات، فلا يجب أن ننسى الأحياء الجميلة الفاتنة كالزمالك والدقي والمهندسين والعجوزة ومصر الجديدة. في هذه الاخيرة ينسى المتجول والساكن كارثة السكن القاهري. في

هذه الاحياء العمارات النظيفة والفيلات الواسعة والشوارع الانيقة والمحلات التجارية المسيلة للعاب والناس " المودرن " على آخر شياكة.

أما أنا فانتهى بي الامر بعد عودة الاصدقاء للمغرب إلى هذه الغرفة فوق السطوح. ولكي لا يصدمني هذا الاسم أعزي نفسي وأقول بأن فوق السطوح الذي أنا فيه مخالف لذلك الذي في الاحياء الشعبية. فأنا في حي الدقي أحد الاحياء الراقية. والعمارة التي أنا فوقها صغيرة ونظيفة مطلة على شارع دائم الاخضرار. كما أن سطحي لا يوجد به سواي وليست به أشياء مرماة، وهو مطل على الحي الجامعي من الجهة الاخرى حيث الفراغات الخضراء والطلبة في جلابيبهم الصيفية منتشرون يراجعون دروسهم استعدادا للامتحان. ومع كل ذلك فالصدمة ستأتيني لانها مستمرة. كأنها صدمة الحداثة. ففوق السطوح أنا وحيد. والوحدة زادي ويقيني.

(٦٨)

بعض أحلامي من فرط غرائبيتها يصلح سيناريوهات أفلام ممنوعة على الاطفال. البارحة مثلا رأيت كأني في حقل محروث به شجر فاكهة وضمنه شجرة برقوق أحمر. البرقوق أغراني وقبل أن أتوجه لقطفه وجدت أن بيني وبينه كتلة صغيرة من السمك. كل سمكة في شكل مثلث. الاسماك تحركت صوبي زاحفة، ولما رأتني

أتراجع أسرعت في الزحف وأخذت في مطاردتي مكونة كوكبة على رأسها سمكتان من أكثرها سرعة كانتا تكادان تقضمان قدمي لولا أني كنت أسرع منهما رغم ما كنت فيه من عياء. وبقينا كذلك إلى أن صعدت لتل. بعده وجدت حقلا محروثا ظهرت لي بين تربته قطعة قماش هي جزء من سروال. وما أن لوحت بالقماش في وجهه الاسماك حتى ولت هاربة مخلفة عواصف من الغبار. وقد تمثلت لي وهي تفر أشبه بأبقار سوداء أو جواميس أو خنازير برية. وبعد أن رأيتها تنصرف التفت في الحقل المحروث وإذا بي أرى امرأة مسنة تعد الطعام على النار في ذلك المكان المقفر الذي لا ماء ولا شجر ولا مساكن فيه. وقد حكيت للمرأة حكايتي مع جيش السمك فتعجبت من وجوده هناك في البر.

(٦٩)

يفرض الخيال نفسه علّي بشكل مهول. فأجدني متصلا بعوالم مغرقة في البعد، أرضها من طبائع مختلفة. أجد نفسي مرة في دنيا الرياضة ومرة في عالم السياسة ومرة في الفن وأخرى في الادب أو الوظيفة العمومية أو الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل أو في أي مصيبة تدخل فكري وتنفجر فيه. والنتيجة أني أبقى مستلقيا لمدة ساعات طويلة هاربا من المقرر.

وعبثا أحاول التخلص من هذا الخيال الثقيل بسماع الموسيقى أو التلهي بقراءة بعض الرسائل ومشاهدة صوري في المغرب أو إعداد الطعام. ولا شك أن مما يضخم هذا الخيال ويضخه وينفخه، غياب أنشطة ترفيهية. فحتى الرياضة التي كنت بدأتها هذا الصيف في الصباح الباكر، لا أجد الاستعداد لمتابعتها بانتظام، رغم أنها تمكنني من لقاء بعض الاصدقاء القاطنين بالمنيل والذين لا أزورهم لاختلافات بيني وبينهم في درجة تطبيق العقيدة. لكننا في الملعب لا تشوينا شائبة. نحن مغاربة على كل حال ونعاني جميعا من قهر الغربة.

السينما أذهب إليها مرة إلى مرتين في الاسبوع. جولاتي في المدينة قليلة. فأنا في حالة استنفار كما تعرف لمواجهة الامتحان. وعند الامتحان المرء لا يهان ولا يعز إلا إذا كان جبانا أو من فصيلة الإنسان في آخر الزمان.

(٧٠)

بمناسبة عيد الاضحى زارني أحد الأصدقاء من المنيل. هو أيضا وحيد، يسكن في غرفة بشقة بحي قديم. ومعه بالشقة صاحبتها وهى امرأة عجوز ثخينة. لا تكاد المسكينة تخرج من فرط سمنتها من باب الشقة. الصديق زارني فلم نشتر كبشا نقتسمه كما فعل باقي

الاصدقاء في المنيل. لكن اشترينا كيلو كفته من الجمعية الاستهلاكية و "عيدنا " عليه.

(٧١)

النوم في الشارع المصري مثير للانتباه. فهنا عائلات بكاملها تنام في الشارع. وكثيرا ما رأيت على سبيل المثال بعض الباعة كباعة الخضر ينامون إلى جانب زوجاتهم وأطفالهم في الشارع بجوار سرير الخضر. ولم أكن أنا من العاجزين. فبعد أن تأخر بي الليل البارحة بميدان الأزهر وخان الخليلي، استأنست بالجو الحار فتوسدت أحد الادراج الخارجية لضريح سيدنا الحسين من جهته الخلفية ونمت إلى أن اذن الآذان وبدأ المصلون في الدخول لمسجد الضريح. فقمت " جمعت نفسي " وغسلت وجهي من إحدى " الحنفيات " وأشعلت سيجارة وانحدرت مع الشارع في اتجاه العتبة حيث شربت شايا في إجدى المقاهي الفجرية وانتظرت اول حافلة أخذتني للدقي.

(٧٢)

يكاد يكون من المألوف عندي أن أقضي النهار بكامله دون أن اكلم احدا، إلا بضع كلمات بالعامية المصرية مع الباعة في السوق. وربما تكون الرياضة هى الشئ الوحيد الذي استفدته في عزلتي الاضطرارية هذه. ذلك أني أمارس الرياضة مرتين في الاسبوع

على الأقل حيث ألتقى بالزملاء المغاربة في الملاعب التابعة للحي الجامعي القريب مني، ولقاؤنا لا يخلو دائما من متعة لما يتخلله من ضحك ولعب. ونحن في العادة نلعب كرة القدم، إما بيننا أو رفقة من وجدناه من الطلبة المصريين. زرت السفارة المغربية هذا اليوم، وعدت منها محملا بأزيد من عشرين جريدة مغربية مختلفة التواريخ التهمتها في ثلاث ساعات دون أن أغادر مكاني. لقد أعادتني للمغرب وجعلتني أدرك كم أنا مشتاق إليه، إلى أي شئ فيه حتي لو كان ورقة ملقاة في الشارع أو علبة فارغة أو حجرة من رصيف. وكم أجد ذلك بعيدا وكم أجد الفارق كبيرا وشاسعا. آه ثم آه.

إننا في آخر شهر غشت. ومعناه أن عز العطلة الصيفية راح. وبعد يومين نستقبل الشهر الجديد. وفي آخر هذا الشهر تتجدد الدراسة في المعاهد والمدارس والكليات. ومنذ منتصفه تبدأ طلائع الحياة الدراسية على الوجوه والشوارع.

أننا نودع إذن شهرا ونستقبل شهرا. نودع فترة ونستقبل فترة. ورغم أننا في نفس السنة فإن اختفاء غشت وظهور شتنبر يشعرنا بأننا نودع سنة ونستقبل أخرى جديدة. على أن هذا التغير لا يشعرني هذه السنة بتحول في إحساسي تجاه السنة. فأنا منذ التحقت بعين شمس وأنا في فترة واحدة حتى الآن. والسنة الجديدة لن تبدأ بالنسبة لي إلا باجتياز الامتحان وظهور نتيجته. وقبل شهرين أو ثلاثة كان أقسى ما أخاف منه أن يكون الصيف مجدبا مقفرا وأن أجد

نفسي فيه محاصرا بالعزلة والغربة. لكن لم يحدث شئ من ذلك لحسن الحظ. فالأصدقاء الذين كنت أسكن معهم طيلة الأشهر الدراسية العادية ظلوا في القاهرة معي إلى نهاية الشهر الماضي ينتظرون الحصول على المنحة الاخيرة. وكنت دائما أزورهم في السكن الذي كنت أشاركهم إياه. وبالإضافة إلى ذلك فقد فضل بعض الطلبة المغاربة الساكنين بحي المنيل البقاء في القاهرة وهم أيضا أصدقاء وقد كنت التقي بهم وإن كان ذلك نادرا ما عدا في الملعب الجامعي حيث كرة القدم تجمعنا في الصباح الباكر.

برنامجي الغذائي الاسبوعي فقير. تنقصه الفواكه لأنها غالية وكذلك الحليب. يوما الاثنين والثلاثاء اتغذى لحما سليما أو مفروما، حيوانيا أو من الدجاج تبعا لما يتوفر في الجمعية الاستهلاكية من لحم مجمد مستورد وطبعا من غير فائدة صحية. لا تسألني عن اللحم الطري عند الجزار فأنا لا أملك ثمنه، باقي الايام أهيئ أكلي من الخضر أو الحريرة. يوم الاحد أخلط السردين المعلب بالطماطم. وبين الفنية والفنية أتناول بعض سندوتشات الفول. وقد أضيف خلال الشهرين القادمين قليلا أو كثيراً من الأرز والقطاني والبيض. وسأبقى في هذه الغرفة الضيقة فوق السطوح. وفي هذا المطبخ المختنق الذي لا يفصله عن المرحاض سوى قطعة من البلاستيك. سأبقى إلى حين عودة الاصدقاء الذين كنت معهم في شقة شارع منى. فقد اتفقنا أن نسكن معا خلال السنة المقبلة

ويجب على كل حال أن أنجح لأضمن استمراري هنا. ذلك بعض مَالَكَ وما عليك ونادى عليه يحصي الفائدة. ذلك الذي ما نام في شوارع وما تدلت عليه مقاهي.

(٧٣)

ومازلت أذكرك وتفاجئني صورتك. أستحضرك جنبي وأنسى الواقع المر والازدحام مع الناس فيمتزج الازرق والابيض والاخضر ويشع منك النور اني فإذا أنت على الزجاج والواجهات والطرقات. كأن كل الزمن الذي غبر ما غبر. وكل البعد تغرب ما تغرب. كأني هباء في البعد. وأراك كأني أراك. أحبك مع الأسف رغم كل هذه القضايا والأفكار وكل هذه الاشكاليات والثقافة والمصير والمستقبل ورغم مشاكل الواقع وهذه العزلة القاتلة وهروب هذا العمر. تأتيني أوقات أحس فيها أني مظلوم. أطارد هذه الأوهام التي لا تبدو على ميعاد. أبدد طاقة وشباب العمر في المحافظة على توازني في زمن القحط والغبراء. تأتيني لحظات أتذكرك، ثم أصحو وأدرك أنه من المستحيل أن نتواصل حتى لو التقينا. لقد أحببت زمن ألوانك. وحده أحببت. إنها مجرد ذكريات.

(٧٤)

كنت هذا اليوم بجامعة عين شمس. وساحة الجامعة هناك منورة بشبابها مثل السنة الماضية. حركة دائبة وألوان زاهية وتفاصيل

متنوعة للجسد وضحك وفرفشة ودلع يا ولد. الواحد قد يفتح فاه ولا يشعر، ويفهم في الحال أنه غلبان ضعيف في الزمان والمكان.

سيؤجلون الامتحان وهذا عكس رغبتي لأني أريد أن اتخلص منه لأعرف ما أفعل. والآن بعد أن ألممت بالمقرر طحنا وغربلة سأخصص الاسبوعين المقبلين السابقين للامتحان للتصعلك قصد أن أساير التيار الذي لا سبب بيني وبينه ولا علة لذلك السبب، فهو في واد وأنا في واد وبين كل واد وواد جبل، وبين كل جبل وجبل بحر، داخل كل بحر صحراء، داخل كل صحراء جزيرة بها نخل وبلح ونساء. فاعقل يا مجنون واسبق إلى الثمار الدانية، ذلك فضل فصوب وجهك شطر الواحات، وحذار من الحماقات. مما يزيد الطين " غيسا "[1] أن الامتحان أجلوه فخلقوا فراغا يصعب ملؤه انعكس على تصعلكي يوم أمس واليوم. تصعلك في الشوارع المزدحمة بالناس والباعة والمقاهي الشعبية وبالمتأملين بأفواههم الفاتحين منافذهم الحازمين بالعصر وغيرهم وغيرهم، فما يظهرون من صرامة الاخلاق يخفى انجرافا للشره والجوع النفسي.

أمامي حلان. الاول أتبع فيه الانجراف والثاني أغري فيه النفس بالتمني وسأجني في الحالتين حصاد المكتئب ومنعطفات القلق وما يغبر في عصب المخ مما يحرك ويحرك وتلك علامة قد

---

[1] الغيس: الوحل

يؤولها من يؤولها حيث اللاشعور يبني القداسة حين يفرش لها ماء الريحان وزهر الرمان والامران أمران.

بعيدا عن هذا الهدر الذي لا وراء لطائله، انقطعت عنا الطماطم وافتقدنا حمرتها من السوق فأثر طيرانها على سير برنامجي الغذائي. ومنذ عشرة أيام أصبحت وجباتي فول وطعمية وبيض وبلح وجوافة[1]. في رأسي صداع. غذائي لهذا اليوم كان فولا وطعمية وعشائي عدس وجوافة. الساعة إلا ربعا فلتصبح على خير.

(٧٥)

قد يبدو أني نرجسي. وأنا لست كذلك، إذ لا تعجبني نفسي ولكن أشفق عليها. والشفقة باب الحب. ربما أنا ذاتي، بمعنى منسوب لذاتي لطول ماشكوت ثقل حملها. كأن الشكوى أسطوانة. هل تنتظر أن أكلمك عن أشياء أخرى ؟ اعطني مثالا وأنا أمتثل. لماذا لا يكون لسيرتي بريق أنا الاحمق في الكتابة ؟ ولماذا لا تكون قيمة للأخماس التي أضربها في الأخماس والمئات التي أضربها في الآصفار ؟

ليس عندي نشاط جماعي منظم. حتى نشاط الطلبة المغاربة منعدم هنا رغم أن الضرورة تلح على وجود نشاط نقابي. والسبب في هذا الجمود قلة عدد الطلبة وتفرق وتباعد مساكنهم. ثم إن البعد

[1] الجوافة: فاكهة رخيصة.

عن المغرب سيجعل أي نداء في الفضاء. نحن في حاجة لنضال طلابي لتغيير وضعيتها وحل المشاكل المزمنة التي نعيشها والراجعة لفشل الاختيارات السياسية ببلدنا وبخاصة فيما يعود للسياسة الخارجية التي لا تضع في مخططها أن الجالية المغربية يجب أن ترعى لتكون واجهة حسنة وممثلة. هذا على الاقل إذا فطنت إلى أن بإمكانها أن تستغلها كواجهة، ناهيك عن أن أفراد هذه الجالية هم في بعثة وملزمون بعمل دراسي ويجب أن يمكنوا من كل ما من شأنه أن يساعدهم ويهيئ لهم ظروف العمل والبحث. مشاكلنا محصورة بصفة خاصة في هزالة المنحة وانعدام الرعاية الاجتماعية والطيبة. كما أننا مهددون هذه السنة بدفع الرسوم الجامعية – وهى تعادل منحة ثلاثة أشهر – من جيوبنا الفارغة. مع العلم ان المنحة المغربية أهزل منحة. لهذه الأسباب يعيش الطلبة المغاربة عيشة فقيرة. فمن سمع ؟ وللحديث بقية.

(٧٦)

سيأتيني غيم هذا الاسبوع وسأفرح به، وسيظل دائم الغزارة علّى وسيظل يسقي نبتي ومنبتي، سيكون نخلتي وواحتي، سيكون ربوعي وحجمي وشكلي وأصابع يدي. سيكون ذبذبات جسمي وارتعاش دماغي. حضرت مساء أمس مناقشة رسالة دكتوراه في الفلسفة في موضوع " فكرة التطور عند وايتهيد " وسأحضر غدا

مناقشة لرسالة ماجستير في الفلسفة أيضاً لكن في موضوع: " فلسفة التاريخ عند فيكو " وذلك في رحاب جامعة القاهرة. والرسالتان معا بإشراف د. حسن حنفي حسنين. وبعد انتهاء المناقشة التقينا به – نحن المغاربة – فشكرنا ومدح فضائلنا معبرا عن أسفه لمغادرة المغرب الذي سبق له التدريس فيه. ومن جهة أخرى مازلت مداوما على حضور مكتبة كلية الآداب بالقاهرة لإعداد دراسة عن كتاب " صبح الاعشى " للقلقشندي. وأنت تعرف طبعا أنه لا يفصل بيني وبين حائط جامعة القاهرة إلا خمس دقائق. أما حائط جامعة عين شمس لان المغاربة غير موجودين حاليا بالاحياء المجاورة لها. وهي في عمومها إما مزدحمة أو مرتفعة الثمن.

(٧٧)

بعد عشرة أيام بالتمام أكون قد قضيت بالقاهرة سنة. درت حول الشمس دورة وعادت الارض لمكانها. سنة كاملة وأنا بعيد عن أهلي ووطني. مرت على متاعب كثيرة مازلت أحياها. وبعض متاعبي ذات جذور قديمة. ولا أنكر أني استفدت ثقافيا وازدادت خبرتي الاجتماعية وازداد اقتناعي بأن بوسعي أن أواجه حتى النبض الاخير ماُهْتُ في قواى، في مدينة أظهرت الشيب في رأسي.

أخيرا يصل اليوم المرتقف الذي ظللت أنتظره سنة كاملة. يوم الامتحان بعد غد السبت. سبت بعد غد ليس كغيره لانه سيحدد

مصيري في مصر. وقد مللت الانتظار كما قلت لك. ونحن الآن نسير نحو نهاية اكتوبر، في مطلع الشهر المقبل سيعود الأصدقاء – إذا صح وعدهم – وهذا يعني أني سأنتقل معهم إلى سكن جديد بعد أن قضيت في هذه الغرفة الضيقة أربعة أشهر صيفية كاملة.

ليت المنحة تأتيني كالملاك. ولكنها كالملاك وليست هذه أرض ملائكة المنحة. لابد أن أجتاز الامتحان وأنتظر شهرا لتظهر النتائج وأبعث شهادة النجاح عبر الخارجية للوزارة الوصية التي ستعين لجنة للافتاء فيها تحولها إلى المالية والمالية إلى الخزينة. أمامي ثلاثة أشهر أخرى أو أربعة قبل أن يشرفني وجه الملاك. وسيكون بين آخر منحة والمنحة المقبلة أزيد من نصف سنة.

(٧٨)

أنا في حديقة الأورمان في آخر يوم استعدادي للامتحان. لقد تعودت كما تعرف أن أهيئ للامتحان هنا وهذا موضوع آخر دعنا منه الآن ما بين سور قضبان الحديقة وسور قضبان الجامعة لا يوجد سوى الشارع الكبير أو الطريق الآتية من الهرم عبر ميدان الجيزة والذاهبة عبر فرعين، لكل من التحرير والمهندسين عبر الدقي. وقد كنت على وشك أن أتعرض لاستنطاق بعد أن سألت أحد أفراد القوات وكان واقفا أمامي خارج السور عن سبب ما يحدث، فسألني بعينين حادتين: إيه إيه بتقول إيه ؟ هو أنت منين ؟ فقلت له ياحضرة

الضابط أنا لست من هنا أصلا. أنا من المغرب بذاكر. فقال وقد تلطف بعض الشئ، ياابني روح ذاكر وما تشغلش نفسك. وكان يبدو على أني لست من الثوار. بل كنت أبدو داخل " فوقيتي " التي لا ألبس تحتها سوى الشورت وبمنظر الدفتر الذي أتابطه وبنحافتي ودمي المشروب " المسكوف "[1] أني كالحمل الوديع.

في هذا الاسبوع خطفت طائرات حربية أمريكية طائرة مدنية مصرية تقل بعض الشخصيات الفلسطينية. فتظاهر بسبب ذلك طلاب الجامعات المصرية احتجاجا على هذا السلوك الرعوي الامريكي وتصدت قوات الامن المصرية لهذه المظاهرات.

ويكون للمظاهرات هنا صدى أوسع. إذ تتسبب في تعطيل حركة السير. فبوليس المرور يسارع بإيقاف هذه الحركة حتى لا تتراكم وسائل النقل حول الجامعة بحكم أن الجامعات في القاهرة كلها بمحاذاة طرق رئيسة داخل المدينة. وينتج عن هذا التعطيل أن تمتلئ هذه الطرق عن آخرها ولمئات الامتار. مثلا حتى ساحة ميدان الدقي أو ميدان الجيزة أو المنيل عبر كوبري الجامعة. وهكذا تحدث هذه التحركات الطلابية ضجة كبيرة فتتسابق وسائل الإعلام الأجنبية إلى نقل أخبارها نظرا لحساسية الوضع.

---

[1] المسكوف: الممصوص.

(٧٩)

بعد هذا الأسبوع الثقيل أقتنص هذه اللحظة لأكتب. وهو أسبوع ثقيل بدأ مساء الجمعة الماضية تخللته ثلاثة أيام متتابعة من الامتحانات. كنت في كل يوم مضطرا لقضاء ساعتين ذهابا وإيابا بين الحافلات المزدحمة في جو ساخن وحار شديد التلوث متكائف الغبار والأدخنة. عندي أمل في النجاح رغم صعوبة الاسئلة. وأحاول الآن أن أزحزح هذا الارهاق وفقدان الشهية. وحدث أن زارني الغيث في هذا الاسبوع نفسه فسعدت طبعا وكيف لا أسعد ؟.

يظهر أننا في بداية شهر نوفمبر والأنباء لا تبعث على التفاؤل. فقد بلغني أن الوزارة رفضت تجديد المنح وأنها تطلب شهادات خيالية. ومازلنا مهددين بدفع الرسوم من جيوبنا. فمن يشد هذه الاجنحة المنكسرة ؟

(٨٠)

تحركت القضية عندي هذه الايام. ويبدو أني قضيت أحسن أمسياتي القاهرية مع غيم مغاربي. تجولنا تحدثنا تشابكنا. بالايدي فقط. واستعدت بذلك علاقتي بالكلام وبالحلم. هذا الغيم عصري ومثمر وسيذكرني بما كدت أنسى لأنه سيعمر خوائي. أما عن الرومانسية فلا تسأل. وأما عن متاهة المشاكل الادارية فلا تسأل أيضاً ما دمت تعرفها، أو فاسأل.

(٨١)

صور أنت يا مصوراتي بمصورة عقلك الأعلى. صور مجئ إنسان لوحده لبلد لا معرفة له فيه. لا يستنده فيه مال أو مآل، وصور أيضاً إحساسه وهو يحن لبلده من غير أن يستطيع الرجوع. فلا يجد له وسيلة سوى أن يتذكر والديه فيبكي.

وصور ضمن ماتصور أن هذا الإنسان قضى السنة على جزئين.

نصف في جامعة والنصف الآخر في جامعة ثانية. ثم مكث سنة كاملة وشهرا ونصف شهر قبل أن تظهر نتيجة امتحانه لتزاح عن رأسه فوهة كابوس كان معبأ بطلقات كاتمة للزمان مفجرة له.

لكن الأجنحة المنكسرة مازالت تنشد وتتمدد وتقطع وتنبت. وذلك من الفضل علينا. يظل الزمان غريبا هنا مهما بسط يديه. ومثلما ولدنا غرباء سنبقى. هكذا عشنا. وأنت الذي في المغرب مهما كانت شقاوة ما تعيشه فيه يكفيك أنك هناك.

(٨٢)

بعض رسائلك يضيع وبعضها يتأخر طويلا وبعضها يصل في أقل من أسبوع. ولكي تأتيك الرسائل في ميعادها ولا تتراكم في محفظة سعادة البريد يجب أن " تدور " معهم في كل مرة جاءوك برسالة. إخواننا العرب كثر الله خيرهم أغلوا علينا بقشيش سعاة البريد، فلا تراهم إلا ممتعضين وهم يمسكون منك ورقة 25 قرشا أو

البريزة، كذلك أغلوا علينا سوق البوابين وسائقي التاكسي وسوق كل من يقبض خارج أصناف التسعيرة.

(٨٣)

بمجرد ما عاد الأصدقاء من المغرب التحقت بهم وبحثنا جميعا عن سكن جديد حتى وجدناه في هذه الشقة الكائنة بشارع الانصار قريبا من بولاق الدكرور ولكن في نفس الحي السابق، أي الدقي. شارع الانصار متفرع من شارع التحرير. الشقة تقع مباشرة في الطابق السفلي من أول عمارة في شماله. بها صالة وحمام وثلاث غرف ضمنها واحدة صغيرة انفردت فيها وحدي. أما تركيبتنا البشرية فوقع فيها بعض التغيير بعد أن انسحب صديقان فضلا السكن وحدهما والتحق بنا عوضهما صديقان.

واحد كان السنة الماضية بالمنيل بينما التحق أول مرة بالقاهرة. هكذا أصبحنا خمسة وكنا ستة أما فترة الصيف ومطلع السنة الدراسية فكنت وحدي.

عم شحاته البواب رجل غلبان ومشبع بطيبوبة ريفية. اتفقنا معه على عشرة جنيهات شهريا مقابل الحراسة وتنظيف مدخل العمارة.

أما الشقة حين دخلنا إليها فوجدناها في وضع يرثى له، أرضيتها صغيرة وحيطانها متسخة ومطبخها عششت فيها الخنافس و

" الرتيلاء " والصراصير. قالوا لنا إن الشقة لم يكنسها أحد منذ ثلاثة أشهر وأن ابن مالكها كان ينوي اصلاحها ليجعل منها مكتبا له. أما قبل الأشهر الثلاثة فكان يسكن بها سودانيون. وكلمة سودانيين إذا ارتبطت عند المصريين بالايجار دلت على تخريب الشقة وإفراغها من أي جمالية. وقد عانيت ذلك بالفعل وأنا أبحث مع الاصدقاء عن شقة للإيجار. فكان أن أخذنا السمسار لشقة في إحدى العمارات. وعلى بابها كتبت بخط سميك عبارة " الداخل مفقود والخارج مولود ". مرد ذلك إلى كون أغلب الطلبة السودانيين من عائلات فقيرة حيث يتغلبون على غلاء الايجار بايواء بعضهم لبعض حتى يصل القاطنون في الشقة الواحدة إلى ٢٠ نفرا أو أكثر.

(٨٤)

انتبه إلى أني تأخرت بعض الوقت في أن أخبرك بأني نجحت في الامتحان. لعل السبب في عدم التعجيل بإخبارك، هو أني لم أتذوق حلاوة النجاح بالشكل المطلوب والمعتاد. والسبب أن طعم النجاح مهما حلا لن يصل لتعسيل لساني وقلبي وتحليتها بعد حصار وضغط هذه القاهرة الاخرى الاكثر قساوة على من لا يملك معه أساليب متطورة وحصينة للمواجهة. المهم أني نجحت بفضله وسنده. لكني لا أخفي عليك أني بدأ يتولد عندي إحساس جديد فيه مخالفة ومما يزة لما عشته من أحاسيس في الفترة السابقة. أحس

الآن أن الأتعاب النفسية والذهنية التي ألفت الاقامة في ذاتي بدأت تتبدد وتنسحب باحثة ربما عن ضحية أخرى.

أقول هذا إحساس جديد. إذ أرى أن بوسعي الآن أن أضمن استمرار المنحة وأن أتقدم بطلب لتسجيل رسالة الماجستير التي جئت من أجلها. وقد قمت بالفعل في الفترة الفاصلة بين إعلان النتيجة وبين هذا اليوم بخطوات في سبيل ذلك. لقد أعددت تقريرا حول الموضوع المقترح واطلع عليه الاستاذ صلاح فضل فوافق مبدئيا على الاشراف عليه. وأنا في انتظار رده النهائي على التقرير. حيث إذا كان الرد إيجابيا فإن التقرير له قنوات يجب أن يمر بها، هى مجلس القسم فمجلس الكلية ثم مجلس الجامعة. لكني لست يائسا وليس لي أن أكون كذلك. إذن أقول هذا إحساس جديد، ترى هل " جدته " ستتغلب على قدم الفضاء نفسه وقدم الشخوص والقوالب والهياكل نفسها ؟.

(٨٥)

تحدثت معك آخر مرة عن القدم والجدة وطرحت سؤالا. وأقول لك في نفس السياق أننا مازلنا نعاني من القرارات الوزارية المغربية بخصوص الرسوم الجامعية المفروضة في مصر على كل الطلبة الأجانب. اجتمعنا في السفارة المغربية واتصلنا بمسؤوليها فعلمنا ضمن آخر ما علمناه أن الوزارة قررت أن لا تدفع الرسوم

مباشرة للجامعات المصرية، بل علينا أن ندفع نحن أولا من جيوبنا أو من قوتنا أو من دمنا على أن تقوم الوزارة بعد ذلك بتعويضنا.

وأقول لك انتبه إلى أني أنا شخصيا لا أقدر على ذلك. أولا لم أتوصل بالمنحة بعد. ثانيا حتى لو توصلت بها فلن أستطيع أن أدفع منها الرسوم وهى مجتمعة لا تعادل قيمة الرسوم اللعينة. انتبه واحذر أو لا تحذر، ذلك شأنك وما علّى سوى البلاغ يا مرفوع من الوجود.

(٨٦)

اسمح لي أن لا أقص عليك حاليا وقائع عن أشياء اسمها مغامرات عاطفية ولا عن أشياء اسمها مغامرات جنسية. أنا احترم مشاعرك تجاه المرأة التي تصادفها هنا. مصرية كانت أو مغربية أو سودانية أو مغاربية أو إفريقية عامة. أعطف لساني أو قلمي حتى لا يخوض في هذه المخاضات في الوقت الحالي. دعني أنتظر على الاقل لأعرف جيدا من أين تؤكل الكتف حتى أكون من الرهط الادرى بشعابها وبمسالك تضاريسها.

(٨٧)

مثلما جرت العادة. وضعت جهاز الكاسيت عند رأسي وأدرت شريطا مغربيا شعبيا. أنا في فراشي وأنت جانبي، أقول لك

بأن الاستماع لأغنية شعبية يمثل عندي هنا القبض على مسافة منفلتة من الأصابع. إنها لحظة متعة تخرجني من أقفاص لغوية إلى رحابة حلم يستحضر كليات الزمن مرة واحدة. أحس أني أكسر بيدين صلبتين قضبان الأغاني المفروضة علّى. لقد قهروني بهاني شاكر وغيره من المطربين والمطربات صحيح أن للفن المصري أصالته وجماليته، لكني لا أريد أن تتحول الأصالة والجمالية إلى كابوس. اعطوني جرعة واحدة من الفن المغربي حتى لو كان رديئا ومبتذلا. المهم أن يذكرني بوطني. أي أغنية من كل أغاني القاهرة تعوض عندي هذا المقطع: " ما تخلنيش. في بلادك ما نقدرش انعيش " ؟ أي صوت يعوض صوت هذه المغنية المعتقة في جبال وسهول وحقول المغرب ؟.

(٨٨)

لم أكلمك منذ أزيد من شهر. شهر كان طافحا بوقت يطير لا أعرف صبحه من مسائه، غير أن فائدته مثمرة. مثلا وافق مجلسا القسم والكلية على موضوعي المقترح للماجستير وهو نفس الموضوع السابق مع التعديلات الضرورية. لكني من جهة أخرى حتى هذا التاريخ ٢-٢-١٩٨٦ لم أتوصل بالمنحة وعلى دين بنصف مليون سنتيم. أي ما يعادل منحة ثلاثة أشهر كاملة. ولا خوف على

وإن حزنت. لا خوف لأن الأصدقاء يمدوني بسلف، وأحزن لأن من عادتي أن أحزن. أنت تعرف وأنا أعرف ولا فائدة في التكرار.

أقضي أغلب وقتي في البيت أطالع بعض الكتب وأقرأ في بعض المجلات أو أفكر في بعض المشاريع الادبية. سأنشغل في الايام المقبلة بمتابعة بطولة كأس افريقيا للامم في كرة القدم في دورتها المصرية بالقاهرة والاسكندرية. المنتخب المغربي في مجموعة الاسكندرية. قد أسافر لمشاهدة مقابلات هناك.

(٨٩)

عرفك كما أعرف، وحدك الآن وأنا أعرفك، تعرفني، على أريكة بصالة شقة ١٠٣ عمارة ١٤ شارع الانصار بالدقي الواحدة بعد منتصف الليل. غرفتان مغلقتان نام أهلهما. أما غرفتك فمضاءة، ترقب نورها من هذه الصالة. ضوء الغرفة يميل إلى الحمرة لأنك كسوت حيطانها بورق مزوق برسومات الورد. إنك تفكر في الوطن. الوطن هم وحلم وحياة والأيام تمضي سريعة. الصبح ينبغي له أن يدرك الليل والليل ينبغي له أن يدرك النهار وليس لكل فلك يسبح فيه. الشمس تجري وكأن لا مستقر لها، والقمر يجري وكأن لا مستقر له، وأنت وكأن لا مستقر لك. خمسة عشر شهرا ونصف شهر منذ جئت للقاهرة ولم تر أهلكأو تشم هةاء بلدك. لو جمعت هذه الشهور وعلبتها وصففتها بعضها على بعض كم سيكون ارتفاعها

؟ لو سحقتها ونفختها في الفضاء كم سيغطي غبارها من قرون ؟ لا تعد الايام ولا تحصى إلا على الورق، ففي المعيش لا يمكن إحصاؤها وقياس مدتها. رب لحظة واحدة يتمنى الإنسان أن يقدم من أجلها أيام عمره كله. وها إني أراك تشتغل وتلتهب وسط هذه الموسيقى الشعبية من بلدك. موسيقى تعمق إحساسك بما هو مفقود وغائب. وأنت تغيب كما أعرفك.

(٩٠)

يبدو لي أن المجتمع المصري يعيش في عمقه ضغطا هائلا إضافة إلى ما غذته العادات والأخلاق بمفهومها المحافظ وهى تواجه تحولات اجتماعية سريعة نحو الانفتاح العشوائي. هذه الحالة من الضغط الداخلي قابلة للانفجار في أي لحظة. فالتذمر باد على وجوه المواطنين من عامة الشعب. أما العبارات المعبرة عن الاحساس فكثيرة في الحياة اليومية. مثل قولهم: فين زمانك يا مصر، رايحة فين يا مصر، يا ساتر يا رب. وتعمل الحكومة بشتى الوسائل وخاصة على مستوى الاعلام، على تهدئة الوضع بالاكثار من المشاريع الترفيهية وتوجيه التليفزيون للتسلية وعزل الناس عن معرفة العالم الخارجي مع إيهامهم بأن الازمة طبيعية وأنها في الطريق نحو الحل وتقديم صورة غير حقيقية عن مصر تجعلها أحسن البلدان وأرخصها معيشة وأكثرها تقدما وخاصة بالنسبة للعالم العربي.

لكن هذا الضغط ينفجر بشكل ينفجر جزئي يوميا في حياة الناس. فتكثر " الخناقات " والخصامات التي قد تنتهي بمآس.

(٩١)

حدثتك البارحة عن الضغط المتستر القابل للانفجار وغير المستثمر من طرف أي تنظيم حزبي أو نقابي يسبب قصور الاداء التنظيمي لهذه الهيئات. لكن في مقابل هذه التذمر يميل الشعب المصري للفكاهة. ومن فضاءات الترفيه في القاهرة الاندية والجامعة. الاندية تنتشر على جنبات النيل أو في بعض الاحياء الراقية، وهى متسعة جدا أحيانا، حيث تصل إلى احتضان حلبات لرياضة الخيل كالنادي الاهلي في ما أظن. ولكن الأندية الاخرى تضم في العموم مطاعم ومقاهي تحت ظل الاشجار وملاعب ومسابح. وتحضر إلى هذه الاندية العائلات كما يحضر الافراد. أما الجامعة فليست في الحقيقة إلا ناديا كبيرا. فالطلبة لا يفرغونها إلا في شهرين من السنة. وتضم الجامعات مطاعم وحدائق ومحلات لبيع المشروبات الغازية والشاي والقهوة.

وتمثل الاندية والجامعة مناسبا للتعارف بين الشاب والفتاة. وهو تعارف غالبا ما ينتهي بالخطوبة فالزواج بعد سنوات الدراسة والخدمة العسكرية وإعداد النفس والجيب. إلا من رحم ربك وآتاه عائلة ميسورة، لا خوف على الجميلات في مصر ولا يحزن عليهم

أحد، لأن عينتهن تطير طيرانا من سوق الزواج فلا تنزل إلا وهى في بيت يراه الكمال فيظن نفسه هو وليس غيره.

(٩٢)

وقع تمرد في مركز لقوات الامن واندلعت اصطدامات شارك فيها الجيش وامتدت بعض الاحداث لبعض الشوارع. كل ذلك في شهر مارس هذا. الأحداث كانت خطيرة وقد رأيت من النافذة عدة آليات للمدفعية الرشاشة تمر مسرعة في شارع التحرير في طرفه المحاذي للعمارة ١٤. لكن مركز الاحداث كان بعيدا عنا. ورغم حظر التجول لم نتأثر نحن كثيرا لأننا اعتكفنا في المنزل لمدة أسبوع نتابع الاخبار عبر الصحف والتليفزيون الذي واكب تطور الاحداث خطوة خطوة. وهذا من مظاهر الديمقراطية فعلا. التليفزيون المغربي لا يخرج للشارع إلا إذا تعلق الامر باستقبال وزير.

(٩٣)

الزمان سد نتجاوزه بالحلم. وتلك الحياة حاضرة والإنسان في ماضيه ليس لاحد ماضيه وحده، لكل كائن ماض مشترك. وحتى لو عاش منعزلا في جزيرة فسيكون ماضيه مشتركا مع الجزيرة. وسيقيم ماضي الجزيرة وذكرياتها فيه كقيامه في ماضيها. سيمثلان معا متتالية تتناوب. هذا واقع ونحن علامات دالة. أشير إليك وتشير إلّى. ونغيب فتشير إلينا العلامة. نحن نشير لبعضنا يا رفيقي فلا تخفي

نفسك وتدفن رأسك. كلنا امتداد وسيرورة. إذ أسترجع المكان الذي بدوره يسترجعنا أسترجع تقاسيم المعناة المشتركة. معاناة مع الشجرة الزرقاء ذات الريش الزاهي. تلك التي لا تظهر إلا للعين ولا تمسك منها سوى الصورة. لا تنكر أنك أحببتها. ولما عجزت عن التقاط ريشة واحدة من جناحها يئست ودفنت رأسك في نفسك.

(٩٤)

سأتوصل غدا بأول منحة لهذه السنة. أتوصل بها بعد أن مضى على بداية الموسم الجامعي الحالي عدة أشهر. إني متأخر عن زملائي بثلاثة أشهر.

الرسوم اللعينة أجرينا بصددها عدة اتصلات مع السفارة. حيث أرسلت هذه الاخيرة برقيات في الموضوع إلى المصالح المختصة في المغرب. كان من نتائج ذلك مجيئ المنحة ووصول رد من الوزارة يفيد أنها ستدفع الرسوم بعد أن نملأ مطبوعات خاصة. لا بأس سنملأ حتى البحر أو مواسير الواد الحار.

من ناحية أخرى وفي الجهة المقابلة لضريح الرسوم، أنا على خير مع بحث الماجستير حيث أعد مادة القسم النظري. إني مشتاق للبلد وللعائلة. لكني أفضل البقاء في القاهرة لمدة أخرى قد تصل لنصف سنة إضافية في انتظار إكمال هذا القسم.

(٩٥)

أجرى في الايام وتخضخضني في بطنها وأحس بها كلما تعثرت حوافرها في حفرة أو أخطأت الوطء على صخرة. ها نحن في منتصف أبريل من هذه السنة ١٩٨٦ وقد حصلت على منحتين أخريين وفككت جملة من عقد مشاكلي فاشتريت بعض الالبسة والكتب. لكن المغرب بدأ يشغل تفكيري أكثر من أي وقت.

(٩٦)

آخر خبر أفاجئك به: لقد قررت أن أعود للمغرب في بداية الشهر المقبل. مر عام ونصف على وصولي للقاهرة فأين أسير ؟ موسمان دراسيان وعدة أطنان من المشاكل. إلى متى أبقى معلقا في مناخير المشاكل ؟ في المغرب يمكن أن أقترض أو أكتب أو أطلب أي مصيبة. المهم أن أسافر وأغسل روحي بخضرة المغرب وأروي جسمي بالمادة. صحيح أني أعود خاوي الجيب ودون هدايا. لكني أعود. المنحة الرابعة التي لم أتوصل بها بعد، وكلت أحد الاصدقاء بسحبها حين وصولها ودفعها مكان الرسوم اللعينة.

(٩٧)

" فعلتها " إذن وهذه لحظة أخرى. هذا صباح باكر من اليوم السادس في شهر ماي ١٩٨٦. اللحظة الاولى كانت قبل سنة

ونصف وعشرة أيام في تلك اللحظة كنت أركب الطائرة في اتجاه مصر. وفي هذه اللحظة أركب الطائرة راجعا إلى المغرب.

اللحظة القديمة كانت شاردة وتائهة ولم أكن أعرف لي مصيرا. أما هذه فلحظة شوق لأرض أحببتها مثل نفسي. هل أحببت نفسي يا ترى !؟ لم أكمل مهمتي في القاهرة وسأعود إليها بالتأكيد لأكمل تلك المهمة. قريبا في هذا الصباح ألتحق بالدار البيضاء وأكون في ابن سليمان قبل منتصف النهار مفاجئا العائلة التي لم أخبرها بموعد وصولي. لا أستطيع الآن أن أقيم " أم الدنيا " وهل هى جميلة أم قبيحة. أقول لك بكل اختصار إني أحببت الشعب المصري رغم قساوة مدينته علّى. السؤال الذي يخطر ببالي الآن هو عن عودتي المحتملة للقاهرة.

هل سأعيد إنتاج نفس المعناة ؟ وهل هذه اليوميات نفسها ستجد لها انطباعات أخرى وتعبيرا آخر ؟ سؤالان. جردهما أودعني أقوم بذلك يا أخي .

كتبت هذه اليوميات خلال سنوات ٨٤ – ٨٥– ١٩٨٦ونقحت سنة١٩٩٦.